الباب الثالث

خصائص الأسلوب القرآنى

- وسائل التأثير فى أسلوب الدعوة القرآنى ·
- توافق الأسلوب القرآنى مع موضوع الدعوة ·

الفصل الأول

وسائل التأثير فى أسلوب الدعوة القرآنى

هدف الداعية الذى ينبغى أن يجعله نصب عينيه دائما : هو تغيير واقع لا يرضاه · وميدانه الذى يلقى فيه بكل أسلحته : هو النفس الانسانية باعتبارها نقطة البدء فى كل تغيير · ولن يصل بالنفس الانسانية الى الايمان بما يدعوها اليه الا اذا تعامل مع ملكاتها المتعددة وجوانبها المختلفة الوجدانية والعقلية والارادية ، فأرضاها كلها وجعل منها وحدة متكاملة فى تقبل الدعوة والايمان بها ·

ومن هنا كان الداعية فى حاجة الى ألوان متعددة من وسائل التأثير ليواجه النفس بما يرضى جوانبها تلك ، والبلاغة هى المورد العذب الذى يغترف منه الداعية ، فينتقى من ألوانها وفنونها ما يبلغ به ما يريد من نفس السامع ، فيصيب منه موضع الاقناع من العقل والوجدان من النفس ، ويستولى على كل جارحة فيه ويحرك همته ويشحذ عزيمته ليمضى نحو الهدف الذى يرجوه ·

والقرآن الكريم وهو المثل الأعلى فى التأثير ـ باعتباره أسلوب عرض للدعوة ـ تضمن فيضا من هذه الوسائل المستمدة من الألوان البلاغية بلغت فى نجاحها حدا جعل أعداء الدعوة لاهم لهم سوى أن يحولوا بين هذا القرآن والناس فيتواصوا بعدم سماعه ويحولوا بين المسلمين وتبليغه للناس·

ولا يمكن لباحث أن يدعى احاطته بكل ما تضمنه القرآن من خصائص بلاغية منحته هذه القدرة الفائقة فى التأثير والاستحواذ على النفوس ، فالقرآن معجز من أية ناحية أتيته ، ولكنها محاولة مهما كانت قيمتها وما ستسفر عنه من نتائج فانها ستترك الموضوع وبه من الجوانب الكثيرة ما يحتاج الى معاودة الدرس وبذل الجهد لاستلهام هذه المعجزة أسرارها · ومحاولة الكشف عن عجائبها · وبالله التوفيق ومنه العون ·

● **أولا ـ التصوير فى الأسلوب القرآنى :**

ـــ قيمة الأسلوب التصويرى فى مجال التأثير :

سبق أن تحدثنا عن أثر الصورة الموحية التى تترك فى النفس انطباعا وجدانيا يمثل فيها دور الشرارة الأولى التى لا بد منها فى احداث الحركة والانفعال · ونزيد هنا أن قيمة الأسلوب التصويرى تبدو جلية حينما نعبر عن معنى من المعانى بأسلوب تجريدى ثم نعرضه مرة أخرى فى أسلوب تصويرى « فاننا نجد أن المعنى فى الطريقة الأولى يخاطب الذهن والوعى ، ويصل اليهما مجردا من ظلاله الجميلة ، وفى الطريقة الثانية يخاطب الحس والوجدان ويصل الى النفس من منافذ شتى ، من الحواس بالتخيل ، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء ويكون الذهن منفذا واحدا من منافذه الكثيرة الى النفس لا منفذها الوحيد » (١)

هذا والتصوير القرآنى ألوان وفنون لكل منها أسراره البلاغية التى تستدعى التعبير فلنشر الى أهمها فيما يلى :

● **التصوير بالكلمة المفردة :**

ألفاظ القرآن الكريم كلها مختارة ومقدرة لتحتل مكانها فى الجملة بحيث لا يغنى فيه سواها ، ولتنهض بدورها فى تأدية المعنى على أكمل وجه وأتم بيان · كاللبنة فى البناء ينتقيها المهندس من بين أخواتها لأنها أنسب لموضعها وأشد امتزاجا بجاراتها ، وأقدر على ابراز جمال البناء وأقوى على تماسكه وصلابته ·

والقرآن الكريم لم يبتكر ألفاظا كانت مجهولة قبله « بل الجديد فى لغة القرآن انه فى كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له اشرف المواد ، وامسها رحما بالمعنى المراد ، واجمعها للشوارد ، واقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذرة فى موضعها الذى هو احق بها ، وهى احق به ، بحيث لا يجد المعنى فى لفظة الا مرآته الناصعة ، وصورته الكاملة ، ولا يجد اللفظ فى معناه الا وطنه الأمين ، وقراره المكين (٢) ·

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٩٦ ·

(٢) النبأ العظيم ص ٩٢ ·

وقد تشترك كلمتان او اكثر فى الدلالة على اصل المعنى اللغوى ، ولكن تكون احداها اقدر على ابراز المعنى وتوضيحه بما تمتاز به عن اخواتها من قدرة على التصوير واثارة الخيال ، ليشارك الذهن فى الاحساس به ، وبما تلقيه فى النفس من ايحاءات بمعناها او صورتها فى الخيال او جرسها الموسيقى ـ وتلك الايحاءات تثير فى النفس مشاعر يعمد البليغ الى اثارتها مستعينا باختياره للكلمات الموحية بها ، ليصل الى غرضه من تمكين المعنى ، والوصول الى النفس من جميع منافذ التأثير فيها ، ودفعها الى الاستجابة لما يدعوها اليه ، والرضا به والتحمس له ·

ومن هنا تأتى قيمة الالفاظ المصورة ، وتتفاوت الاساليب بما فى الفاظها من قدرة عليه ·

ويمكننا ان نقسم الالفاظ المصورة فى القرآن الى قسمين :

اولهما : الفاظ مصورة بذاتها ، قادرة على ابراز المعنى فى صورة ماثلة يتملاها الخيال ويدرك ابعادها ، ومن ثم تلقى فى النفس بايحاءاتها الخاصة ·

وثانيهما : الفاظ تستعار من معناها الاصلى الحسى لتستعمل فى معنى ذهنى فتبرزه فى صورة حسية ليكون ذلك ابلغ فى ابراز المعنى ، وتثبيته فى النفس ·

وسنقتصر هنا على النوع الأول مرجئين الحديث عن النوع الثانى حتى نأتى للحديث عن التصوير بالاستعارة ·

قال تعالى : « **فتنادوا مصبحين · ان اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين · فانطلقوا وهم يتخافتون · أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين** » (١) ·

الآيات الكريمة جزء من قصة اصحاب الجنة التى ذكرها القرآن الكريم بيانا لعاقبة البخل ، ترهيبا منه وحثا على البذل · ونقف عند الكلمات « **تنادوا** » و « **مصبحين** » و « **انطلقوا** » و « **يتخافتون** » فنجدها تصور حركة أصحاب الجنة وهم يتنادون مبكرين قبل ان يستيقظ الفقراء ، ثم وهم ينطلقون

---

(١) القلم : ٢١ ـ ٢٤ ·

الى جنتهم لا يصرفهم شيء عما اعتزموه ، ثم وهم يبالغون من التكتم زيادة في الحيطة ويتخافتون ويسرون بالكلام ، وهذا التصوير الذى قامت به الكلمات يثير الخيال ويجعله يتابع حركتهم ، ويستثير فى النفس حبها للاستطلاع ، ويستولى على مشاعر السامع فلا يستطيع التحول عن متابعتهم فيرى نهاية امرهم ، ومن ثم يستقر فى وجدانه الدرس القيم الذى سيقت القصة من اجله ٠

وقال تعالى : « **عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا** » (١) ٠

والنص الكريم وارد فى سياق الترغيب بذكر ما اعد للابرار المنفقين فى سبيل الله من نعيم الآخرة ٠ ونقف عند الالفاظ « **عينا** » و « **يفجرونها** » و « **تفجيرا** » فهى الفاظ توحى بالوفرة والسعة وسهولة التناول ٠ فهم يشربون من « عين » لا يفيض ماؤها ، ويفجرونها تفجيرا حسبما يرغبون ووقتما يشاءون ٠ وقد اجتمع التصوير والجرس واختيار الصيغة فى هذه الكلمات كى توحى بما أوحت به ، زيادة فى الترغيب بالمبالغة فى المعنى ، اذ أن عيون المياه المتفجرة لها فى خيال العربى وسط هجير الصحراء القاحلة وقع خاص ، فهى اروع ما يبهره ويثير فى نفسه اعمق مشاعر الرضا والانشراح ٠

وقال تعالى : « **يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ٠ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ٠ انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ٠ انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا** » (٢)

والآيات الكريمة تبين سمات الابرار التى اهلتهم لما اعد لهم من نعيم ، وتصور عمق الشعور بخشية الله فى قلوبهم وفزعهم من هول عقابه ٠

ونقف عند الكلمات « **مستطيرا** » و « **عبوسا** » و « **قمطريرا** » فقوله تعالى : « **مستطيرا** » يصور المعنى ، اذ يخيل الشر شيئا ماديا ينتشر ويمتد ليصيب كل من يقع فى دائرته ٠ وتدل صيغته ايضا على المبالغة فى الانتشار والفشو وبهذا كان اللفظ ابلغ فى التعبير عن عمق احساسهم بالرهبة من عذاب الله ٠ ويتضح هذا عندما نستبدله بغيره مما يؤدى معناه ٠

أما قوله تعالى « **عبوسا** » فان بلاغته تأتى مما فيه من قدرة على التصوير اذ ابرز المعنى الذهنى وهو ما يكون فيه من شدة فى صورة تبعث الخوف وتنذر بالشر بالاضافة الى ما فيه من مبالغة حيث أسند العبوس الى اليوم

---

(١) الانسان : ٦ ٠ (٢) الانسان : ٧ ـ ١٠ ٠

على سبيل المجاز العقلى والمراد ان الوجوه تعبس فيه لشدته وهوله . فكأن العبوس قد جاوز الوجوه واصبح سمة لليوم نفسه ·

وقوله تعالى « **قمطريرا** » يصور بصيغته وجرسه مقدار خشية الابرار ورهبتهم من ذلك اليوم · وان خشيتهم تلك المتناهية هى الداعية لهم الى البذل والعطـاء ·

وقال تعالى : « **وما يغنى عنه ماله اذا تردى** » (١)

الآيـة الكريمة تأتى فى سـياق بيـان مصير من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ونقف عند قوله تعالى « **تردى** » فهو يصـور مصير هذا البخـيل ويجسمه ويبرزه شاخصا نكاد نراه فى سقوطه وترديه · بالاضافة الى ما يوحى به من الهوى والسقوط الى أسفل دركات العذاب · وهذا أقدر على التأثير والترهيب فى مقام يستدعى المبالغة فى النهى عن البخـل والتحذير منه ·

وقال تعالى : « **فأنذرتكم نارا تلظى · لا يصلاها الا الأشـقى · الـذى كذب وتولى · وسيجنبها الأتقى · الذى يؤتى ماله يتزكى** » (٢) ·

والآية الكريمة ترهب من البخل · ونقف عند الكلمات « **نارا** » و « **تلظى** » و « **الأشقى** » و « **تولى** » و « **سيجنبها** » ففيها مـن القـدرة على التصـوير ما يجعلها ابلغ فى الترهيب ، فالنذر به « **نارا** » ومن ذا الذى لا يفزع مـن النار ويعمل ما يقى نفسه شرها · ثم هى نار « **تلظى** » اى تتسعر ويشـتد لهيبهـا ثم اختيار صيغة المضـارع للمبـالغة فى تأثير التصوير باستحضار المشهد كأنه واقع وقت التكلم ، وما يلقيه المشهد فى الحس من الفزع والخوف · ولو عبر بألفاظ أخرى لا تستطيع هذا التصوير مثل « عذابا شديدا » لما كان له مثل هذا الاثر المناسب للمقام ·

وقوله « **الأشقى** » الذى يجعل المستحق لهذا العذاب فى قمة الشقاء وتلك اضافة جديدة تزيد التعبير قدرة على الترهيب · ثم لنتأمل قوله « **تـولى** » الذى يصور المكذب فى عدم استجابته للدعوة وعناده كأنه يذهب بعيدا عـن الدعـوة مبالغة فى وصفه بالكفر الذى استحق به العذاب ·

---

(١) الليل : ١١ · (٢) الليل : ١٤ ـ ١٨ ·

أما قوله تعالى « **وسيجنبها الأتقى** » فانه يصور الأتقى قد أبعد عن مصدر الخطر ، فلم يكتف بالوعد بعدم تعذيبه بل أخبر بأنه سيكون بعيدا عن النار زيادة فى الاطمئنان وحثا على البعد عن أسباب الشقاء ·

وهكذا يبدو اثر التصوير بالكلمات فى تقوية المعانى وزيادة تأثيرها فى النفوس تحقيقا لما يرمى اليه الداعية ترهيبا أو ترغيبا ·

هذه نماذج للتصوير بالكلمات نكتفى بها ،والبحث زاخر بأمثالها فليرجع اليه ·

● التصوير بالتشبيه :

لا شك فى ان اسلوب التشبيه له قدر كبير فى فن البلاغة ، فان تعقيب المعانى به ـ كما يقول الخطيب القزوينى ـ ولا سيما قسم التمثيل منه ـ يضاعف قواها فى تحريك النفوس الى المقصود بها مدحا كان او ذما او افتخارا او غير ذلك (١) ·

ويرجع جانب كبير من سر تأثير التشبيه الى ابرازه للمعانى فى صور قوية تقررها فى النفوس ، وتبرزها وتودعها التأثير المخصوص ، فاذا كان التشبيه قد سيق لتشبيه معنى عقلى بحسى فانه ينقل النفس مما تعلمه الى ماهى به اعلم ، اذ تشترك الحواس عندئذ فى ادراكه ، والنفس آنس لما يأتيها من طريق الحواس لانه ينقلها من الخفى الى الجلى ، وما اجمل تعبير عبد القاهر فى تعليقه على مثل هذا التشبيه بقوله « انه قد فتح الى مكان المعقول من قلبك بابا من العين » (٢) ·

واذا كان التشبيه قد سيق لتشبيه حسى بحسى فانه قد قرن صورة قوية تبعث الحياة والقوة فى صورة اخرى بجوارها ·

ولنستعرض بعض النماذج لتشبيهات القرآن المصورة :

قال تعالى : « **فما لهم عن التذكرة معرضين · كأنهم حمر مستنفرة · فرت من قسورة** » (٣) ·

---

(١) الايضاح ص ١٥١ ـ ١٥٢ ·

(٢) أسرار البلاغة ص ١٠٨ ·

(٣) المدثر : ٤٩ ـ ٥١ ·

النص الكريم جاء تعقيبا على ما سبقه من آيات تصور مصير المؤمنين والكافرين وقد استقر بكل منهما المقام فالمؤمنون فى جنات يطلون من علبائها على الكافرين فى سقر ، يسألونهم عما جر عليهم كل هذا الهوان وسوء المصير ٠

ثم يعقب القرآن على ذلك بهذا الاستفهام الانكارى عن سبب اعراضهم الشديد عن الدعوة مع وجود كل دواعى الاستجابة ليقوا انفسهم هذا المصير الذى ينتظرهم ٠ ولكن القرآن الكريم لا يعبر عن اعراضهم بهذا الاسلوب التجريدى الذى لا يثير خيالا ولا يحرك فى النفس ما يربأ بها عن ان تضع نفسها فى هذا الموضع المثير للسخرية والخجل ٠ فيرسم لهم هذه الصورة الموحية بشتى المعانى علهم يرتدعون فيعودوا الى الحق قبل فوات الأوان ٠

فهو يصورهم فى نفورهم من الدعوة والاسراع فى ابعاد انفسهم عنها اسراعا يمضون فيه على غير هدى ، بالحمر المستنفرة التى تبالغ فى الهرب وتحث نفسها عليه فرارا من أسد هصور يبغى اللحاق بها لافتراسها ٠ فكم توحى هذه الصورة بالعجب من امرهم والسخرية منهم ، ثم ما اعظم ما ابرزته هذه الصورة من احوالهم فهم فى فرارهم هذا من الدعوة لا يلجأون الى مأمن من الخطر بل يفرون على غير هدى ولا بصيرة ، ثم ابراز ما فى نفوسهم من كراهيتهم العميقة للدعوة فى تلك الصورة البالغة التى تحملهم على المبالغة فى البعد عنها وعدم الاستماع اليها فضلا عن تدبرها واذا كنا نركز هنا على اثر التصوير فى ابراز المعانى فان ذلك لا يمنعنا من الاشارة الى عوامل اخرى تضمنتها الصورة ضاعفت ما بها من تأثير فاختيار لفظ « الحمر » وما يوحى به من دناءة وخسة مبالغة فى السخرية بهم ثم اختيار لفظ «قسورة» من بين أسماء الأسد لما يوحى به من القسر والعنف مبالغة فى سبب فرارهم وذلك اشارة الى قوة ما فى نفوسهم من مشاعر عدائية تحثهم على الفرار من الدعوة وهكذا يبرز التشبيه المعانى ويثبتها فى النفوس ويوحى بما يحقق الهدف منه ويتضح هذا بجلاء اذا حاولنا أن نعبر عن هذا المعنى بأسلوب غير اسلوب التشبيه كأن نقول مثلا : فمالهم يعرضون عن الدعوة كل هذا الاعراض او هذا الاعراض الشديد ؟ ٠

وقال تعالى : « **ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وأولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون ٠ مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فاهلكته ، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون** » (١) ٠

---

(١) آل عمران : ١١٦ ـ ١١٧ ٠

المعنى ان الكافرين لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ، ولن تنفعهم نفقة ينفقونها فى الدنيا ، ولن يصل اليهم شىء منها فى الآخرة ، حتى ولو أنفقوها فيما يظنونه خيرا ، لأنها ليست صادرة عن ايمان بالله ، والايمان هو أساس قبول الأعمال ·

ولكن القرآن لا يعبر عن هذا المعنى تعبيرا ذهنيا بل يعرضه فى مشهد حافل بالحركة والحياة · فهو يشبه « ما انفقوا فى ضياعه وذهابه بالكلية من غير أن يعود اليهم نفع ما ، بحرث كفار ضربته ريح باردة فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما بوجه من الوجوه » (١) ·

والصورة كما نرى قد احالت المعنى الى مشهد ترى العين فيه الزرع قد تهيأ للاثمار ثم اذا العاصفة تهب ، وتكاد تسمع الاذن صرير الريح وشدته ، ثم اذا الزرع اثرا بعد عين بعد ان اهلكته تلك العاصفة العاتية ·

فأى انطباع بالضياع وسوء العاقبة تلقيه هذه الصورة فى النفس فيهزها هزا ويحملها على مراجعة نفسها قبل فوات الاوان ·

وقال تعالى : « **وأن الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم** » (٢)·

المراد ان ما ادعوكم اليه من الوحدانية هو الدين الحق · ولكن القرآن يعرض هذا المعنى الذهنى فى اسلوب تصويرى اذ يشبه عقيدة التوحيد بالصراط المستقيم الذى لا يضل سالكه بل يقوده راشدا الى غايته التى يرجوها فقد صور المعنى كما نرى فى صورة حسية ملموسة لزيادة تقريره وتمكينه فى النفس بالاضافة الى ما يلقيه التصوير فى النفس من الثقة والاطمئنان كى يقبل راضيا على الايمان ·

● التصوير بالاستعارة :

الاستعارة وسيلة فنية يلجأ اليها الاديب ليجعل القارىء يحس بالمعنى اكمل احساس واوفاه « فهى تصور المنظر للعين ، وتنقل الصوت الى الاذن ، وتجعل الأمر المعنوى ملموسا محسا » (٣) ·

---

(١) أنظر تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٢٦٤ ·

(٢) مريم : ٣٦ ·

(٣) من بلاغة القرآن ص ٢١٧ ·

ومن هنا كانت قيمتها فى التأثير ، فلا تحسن الاستعارة اذا لم يكن اللفظ المستعار أقوى من اللفظ الحقيقى بايحائه الملامس للوجدان وتصويره للمعنى المثير للخيال · وسواء اكانت الاستعارة لكلمة مفردة ام لهيئة مركبة فانها قادرة على القيام بهذا الدور فى التأثير · وان كان للاستعارة التمثيلية فضل فى ذلك نظرا لطبيعتها التى تهبها هذه القدرة ·

وسنورد نماذج لكلا النوعين مشيرين الى اثر كل فى تمكين المعنى فى نفس السامع وتأثيرها فيه ·

● **الاستعارة للمفرد :**

قال تعالى : « **والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم ، كتاب الله عليكم ، وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة،ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ، ان الله كان عليما حكيما · ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات** » (١)·

قوله تعالى « **والمحصنات من النساء** » معطوف على المحرمات فى النكاح فى قوله « **حرمت عليكم أمهاتكم** » فى صدر الآية السابقة ·

والمراد بالمحصنات ذوات الأزواج ، وعبر عنهن بالمحصنات لانهن احصن بالتزوج او بالازواج عن الوقوع فى الحرام · واستعارة المحصنات ابلغ فى تأدية المعنى لانه يصورهن وقد احطن بحصن يحتمين به · وهذا اقوى فى ابراز المعنى وتثبيته فى النفس ، ولانه يوحى ايضا بالحماية والامن · كأن الزواج حصن يحميهن من ارتكاب المحرم ·

وقوله تعالى « **محصنين غير مسافحين** » فالمراد بـ « **محصنين** » اعفاء وبقوله « **مسافحين** » زناة ، والتعبير بالاحصان عن العفة ابلغ لانه يصور المعنى بالاضافة الى ما يوحى به من ترغيب فى الزواج اذ به تتحقق العفة فتكون كالحصن للمتزوج ·

---

(١) النساء : ٢٤ ـ ٢٥ ·

كما ان التعبير عن الزنا بالسفاح ابلغ ايضا لما فيه من تصوير للمعنى لانه مأخوذ من سفح الماء اذا صبه كما يوحى ايضا بالضياع والعبث وفى ذلك تنفير منه ·

أما قوله تعالى « **ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات** » فان المراد بالمحصنات هنا الحرائر بدليل مقابلتهن بالاماء واستعير لفظ المحصنات للحرائر لان الحرية تحصنهن وتحميهن من الامتهان والانحدار الى مالا يليق · فان الحرة لها من حريتها ومن الاعتبارات الادبية التى تتمتع بها ما يحميها من الانزلاق والتردى فى الرذيلة ، والاستعارة ابلغ حيث صور المعنى الذهنى فى صورة محسة وفى ذلك ابراز له وتثبيت فى النفس ثم لما يوحى به هذا التصوير من ترغيب فى التزوج بالحرائر وعدم اللجوء الى التزوج من الاماء الا تحت وطأة الضرورة الملحة · وهذا هو ما ترمى اليه الآية الكريمة · فالتعبير بأسلوب الاستعارة هنا هو ما يقتضيه المقام ·

وقال تعالى : « **وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا** » (١) ·

الآية الكريمة تعدد جرائم اليهود التى استوجبت طردهم من رحمة الله والمراد بقوله تعالى « **قلوبنا غلف** » انهم يدعون ان قلوبهم محجوبة عن قبول ما جاء به الرسول عليه السلام بموانع جبلية كانها غلف اغلف مستعار من الاغلف الذى لم يختتن · والاستعارة ابلغ لتصويرها للمعنى الذهنى وابرازه فى صورة حسية تأكيدا لزعمهم وكأن عدم قبولهم للحق هو نتيجة لكونها فى تلك الأكنة التى يحول بينها وبين وصول الدعوة اليها ·

وقوله تعالى « **بل طبع الله عليها بكفرهم** » رد عليهم والمراد أن عدم وصول الحق الى قلوبهم ليس لكونها غلفا بحسب الجبلة بل الامر بالعكس « حيث خذلها الله ومنعها الالطاف بسبب كفرهم فصارت كالمطبوع عليها » (٢)· مأخوذ من طبع الكتاب فالاستعارة هنا تصور المعنى الذهنى فى صورة حسية ملموسة · ابرازا له وتأكيدا ·

---

(١) النساء : ١٥٥ ·

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥٧٨ ·

● **الاستعارة على سبيل التمثيل :**

قال تعالى : « **ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا** » (١) ·

فى الآية الكريمة استعارتان تمثيليتان ، ففى قوله تعالى « **ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك** » نهى عن البخل بأسلوب الاستعارة « ان شبه حالة البخيل المتنع عن الانفاق بحالة المغلول الذى جمعت يده وعنقه فى غل فلا يستطيع ان يمد يده الى شىء » (٢) وواضح ما فى الاستعارة من تصوير للمعنى فى صورة حنقردة هى أبلغ فى النهى عن الشح من النهى عنه بالاسلوب التقريرى المباشر ·

وفى قوله تعالى « **ولا تبسطها كل البسط** » نهى ايضا عن الاسراف والتبذير فقد شبه حالة المسرف الذى ينفق كل ما فى يده بحالة من يبسط يده كل البسط فلا تمسك شيئا ، والاستعارة ابلغ لتصويرها للمعنى وابرازه ولما توحى به من عدم الحكمة وتقدير الامور · فان الذى يبعثر ماله يمينا وشمالا دون مراعاة لما فيه مصلحته مآله الى الندم والحسرة · وفى هذا بجانب النهى عن الاسراف تنفير منه ·

وقال تعالى : « **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها** » (٣) ·

ففى الآية الكريمة استعارتان ، الاولى فى قوله تعالى « **واعتصموا بحبل الله** » وذلك بتشبيه الحالة الحاصلة من استظهارهم بكتاب الله ووثوقهم بحمايته بالحالة الحاصلة من تمسك المتدلى من مكان عال بحبل وثيق مأمون الانقطاع ، وذلك من غير اعتبار مجاز فى المفردات (٤) والاستعارة أبلغ لابرازها المعنى فى هذه الصورة التى توحى بالامن والثقة ·

أما الاستعارة الثانية ففى قوله تعالى « **وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها** » فالمعنى : لقد كنتم مشرفين على الوقوع فى النار لسوء اعمالكم

---

(١) الاسراء : ٢٩ ·

(٢) نظرات فى البيان ص ٢١٤ ·

(٣) آل عمران : ١٠٣ ·

(٤) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٢٥٨ ·

اذ لو ادرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم فيها · فقد شبه المشفى على دخول النار لسوء عمله ، بالمشفى على الوقوع فيها لزلة قدمه · وانها لصورة تملأ النفوس هلعا عندما تتصور انسانا يقف على حافة هاوية من نار تكاد قدمه ان تزل فيسقط فيها وتكون نهايته الرهيبة · وتلك وظيفة الاستعارة التى تبوئها مكانتها السامية فى البلاغة ·

● التصوير بالكناية :

لاسلوب الكناية ايضا دوره فى التصوير ، وقدرته على ابراز المعانى وادائها خير أداء بالاضافة الى مافيه من تأكيد لها ، اذ كل كناية تتضمن الحكم مصحوبا بدليله ، وذلك ابلغ فى تأدية المعنى وتثبيته فى النفس ، وهذه بعض الامثلة التى تؤكد ذلك ·

قال تعالى : « **ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** » (١) ·

فالمراد بقوله تعالى « **كن فيكون** » تصوير نفاذ ارادة الله تعالى ومضى حكمه ، فلم يكن هناك قول وانما هو تصوير للمعنى كناية عن يسر نفاذ الارادة ونفى ان يكون هناك ما يعوق تحققها ، وهذا ابلغ من التعبير بالاسلوب الحقيقى لما فيه من تصوير ولما تتضمنه الكناية من الحكم ودليله ·

وقال تعالى : « **قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا** (٢) ·

ففى قوله تعالى « **ولم يمسسنى بشر** » كناية عن النكاح الحلال · فان مريم عليها السلام تتعجب مما أخبرها به الملك من أنه سيهبها غلاما · فتنفى وسائل وجود المولد ، فهى ليست بذات زوج فينكحها ، وليست فاجرة تبتغى الرجال · وواضح ما فى الكناية من تصوير للمعنى بالاضافة الى سموها اللائق بأدب القرآن الكريم فقد كنى عما لا يجب التصريح به ·

وقال تعالى:«**فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان**» (٣)

---

(١) آل عمران : ٥٩ ·

(٢) مريم : ٢٠ ·

(٣) الرحمن : ٥٦ ·

« ففى قصر الطرف تصوير للمظهر المحسن لخلة العفة ، ولو انه استخدم لفظ عفيفات ما كان فى الآية هذا التصوير المؤثر ، ولا رسم اولئك السيدات فى تلك الهيئة الراضية القانعة ، التى لا يطمحن فيها الى غير ازواجهن ولا يفكرن فى غيرهم » (١) ·

وقال تعالى : « **فكلى واشربى وقرى عينا** » (٢) ·

فقد كنى عن طيب النفس ورضاها وكشف ما يحزنها بقوله «**قرى عينا**» فاشتقاقه فى الاصل اما من القرار فان العين اذا رأت ما يسر النفس سكنت اليه من النظـــر الى غيره · أو من القر ، وهـو البرد ، فان دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة فاستعمل كناية عن طيب النفس من اطلاق الملزوم وارادة اللازم وواضح ما فيها من تصوير مؤثر فى النفس لانه ابرز المعنى الذهنى فى صورة محسة ملموسة ·

● التصوير بالمجاز العقلى :

لاسلوب المجـاز العقلى قدرة على التصـوير بالتخييل الذى يشخص المواد الجامدة والظواهر الطبعية والمعانى فيخلع عليها الحياة الانسانية فاذا بها تحس وتعقل وتتألم وتنفعـل · ومن هنا يأخذ هـذا الاسلوب اهميته فى التأثير شأن غيره من الاساليب المصورة التى نتحدث عنها ·

ولنقرأ قوله تعـالى : « **ويخافون يوما كان شره مستطيرا** » (٣)

فيعدى الخوف الى اليوم ويخيل لنا اليوم نفسه كأنه شخص مخوف ·

ولنقرأ قوله تعالى« **ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا أن يأتين بفاحشة مبينة** » **(٤)**

فيختار صيغة اسم الفاعل فى قوله « مبينة » ليشخص الفاحشة كأنها انسان يفصح ويبين مبالغة فى وضوح قبحها فهى تبين عنـه وتنادى به ·

---

(١) من بلاغة القرآن ص ٢٢٧ ·
(٢) مريم : ٢٦ ·
(٣) الانسان : ٧ ·
(٤) النساء : ١٩ ·

وقال تعالى : « **وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم** » (١) ٠

فقد اسند الاخراج الى القرية على سبيل المجاز العقلى ، لان القرية لا يتأتى منها اخراج ، وانما يتأتى من اهلها ٠ ولكن اسند الاخراج الى القرية لتصويرها بصورة الفاعل وذلك مبالغة فى تصوير شناعة الجرم الذى ارتكبه المشركون فى اخراج الرسول عليه السلام من مكة كأن القرية ذاتها اخرجته ٠ فهى بكل ما فيها ومن فيها مسئولة عن هذه الجريمة مستحقة للعقاب عليها ٠ وذلك آكد للمعنى ، وأنسب للمقام ٠

وامثلة هذا الاسلوب كثيرة فى القرآن الكريم وهى اوضح من ان يشار اليها ٠

● **التصوير بضرب المثل :**

يطلق المثل ويراد به : « القول السائر الذى يمثل مضربه بموردة ، وحيث لم يكن ذلك الا قولا بديعا فيه غرابة صيرته جديرا بالتسيير فى البلاد وخليقا بالقبول استعير لكل حال او صفة او قصة لها شأن عجيب ، وخطر غريب من غير أن يلاحظ بينها وبين شىء آخر تشبيه » (٢) ٠

ويطلق بالمعنى الاول على الاستعارة التمثيلية التى اشتهرت وصارت مثلا وهى كثيرة فى القرآن الكريم ٠ ومن المعنى الثانى قوله تعالى « **ولله المثل الأعلى** » (٣) أى الوصف الذى له شأن عظيم وخطر جليل ، وقوله : « **مثل الجنة التى وعد المتقون** » (٤) أى قصتها العجيبة الشأن ٠

هذا وأسلوب المثل له خطره بين فنون القول وقدرته على التأثير التى يستمدها من خصائصه المميزة :

---

(١) محمد : ١٣ ٠ (٢) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٤٠ ٠

(٣) النحل : ٦٠ ٠ (٤) الرعد : ٣٥ ، محمد : ١٥ ٠

وأولها : ما يعبر عنه السيوطى فى الاتقان بقوله : « ضرب الامثال يستفاد منه امور كثيرة ، ومنها تقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس ، فان الامثال تصور المعانى بصورة الاشخاص لانها اثبت فى الاذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلى والغائب بالمشاهد » (١) ٠

ويقول عنه صاحب الكشاف : « ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفى فى ابراز خبيئات المعانى ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى يريك المتخيل فى صورة المحقق والمتوهم فى معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد ، وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبى » (٢) ٠

وثانيها : ان للامثال قدرة على الاستحواذ على المشاعر ، وايقاظ النفوس ، وتجديد نشاطها ، فالانسان يميل بطبيعته الى الاستشهاد بالامثال لما يرى فيها من جمال حكمتها ورشاقة لفظها ، واصابتها المعنى ، وطرافتها التى تتجدد ولا تبلى ، مما نرى اثره فى وجوه السامعين لها واقبالهم عليها وتسليمهم بحكمها ٠

وثالثها : ان الامثال وسيلة من وسائل الاقناع فان المورد للمثل انما هو فى الحقيقة يقيس الامر الذى يدعيه على أمر معروف عند من يخاطبه ومسلم لديه ٠ ومن ثم لزم التسوية بينهما فى الحكم وتحقق الالزام به ٠

تلك اهم عوامل التأثير فى اسلوب ضرب المثل ، ولنورد بعض النماذج لها ٠

يريد القرآن الكريم أن يبين للمشركين تفاهة ما يعبدونه من دون الله وعجزهم المزرى فلا يعبر عن ذلك بوصفهم بالعجز والتفاهة بل يصوره فى هذا المثل المؤثر :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » (٣) ٠

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن ج ٢ ص ١٣١ ٠

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ١٩٥ ٠ (٣) الحج : ٧٣ ٠

وأى عجـز أبلغ من عجـز من يرغمونهم آلهة عن خلق أتفه المخلوقات واحقرها وهو الذباب ولو اجتمعوا وتعاونوا فى ذلك ، بـل من عجـزهم عما هو أيسر من الخلق وهو استنقاذ ما يسلبه منهم ذلك المخلوق الضعيف · ابعد هذا دليل على الجهـل والضلال ؟ وهـكذا يتركهم القرآن الكريم هم وآلهتهم سخرية الساخرين وحديث المتندرين ·

ويريد القرآن الكريم أن يبين عاقبة المؤمنين والكافرين ومصير القرين بنعم الله المؤدين لحقها وأولئك الجاحدين لأفضاله المتعالين بما فى أيديهم من أموال فلا يذكر ذلك بأسلوب تجريدى ذهنى بل يصوره فى هذا المثل الرائع :

« واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا · كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شـــيئا . وفجرنا خلالهما نهرا · وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا · ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هـذه أبدا · وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا · قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا · لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا · ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله ، ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا · فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا · أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا · وأحيط بثمره فأصـبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا · ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا · هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبا » (١) ·

وهكذا يعرض علينا المعانى فى هذا التصوير المعجز المؤثر الذى يؤديه المثل ، فيصل به الى أعماق النفوس ويمزجه بحنايا القلوب ، ويستهوى به الوجدان فيستسلم الانسان لما يتضمنه من ايحاء وما يسوقه من عبر ودروس·

والقرآن الكريم زاخر بأسلوب ضرب المثل لما سبق من قدرته على التأثير وهو عدة الداعية فى الوصول الى القلوب وتغيير النفوس ·

---

(١) الكهف : ٣٢ ـ ٤٤ ·

● **التصوير برسم المشاهد :**

أفردنا هذا اللون بعنوان خاص وان كان كل ما سبق من الأساليب المصورة داخلا فى اطاره ، لأننا نقصد لونا معينا من ألوان التصوير ، ونعنى به ذلك الذى يعرض المعانى فى مشاهد توحى بها ، بل تعبر عنها ، دون أن يستخدم أسلوبا ما من الأساليب المصورة المعروفة فى البلاغة من تشبيه واستعارة وغيرهما ، بل يعمد الى المعنى المراد الذى يمكن أن يعبر عنه بأسلوب تجريدى ، فيعرضه فى مشهد حى ماثل للخيال ، ويضمنه كل ألوان التأثير من تجسيم تكاد تراه العيون حركات وأصوات وحوار تشترك كل الحواس فى متابعتها • ولنعرض لذلك بعض الأمثلة :

يريد القرآن الكريم أن يحدثنا عن قدرة الله البالغة ويلقى فى قلوبنا مهابة هذا الاله القادر المستحق للعبادة دون غيره ، فلا يعبر عن ذلك بأوصاف تجريدية ذهنية بل يصوره فى مشاهد تتابعها كل وسائل الادراك فى الانسان فيقول جل شأنه :

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون • ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون • وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون • وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون • وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون • وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون • وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون • أفمن يخلق كمن لا يخلق ، أفلا تذكرون » (١) •

ويريد القرآن الكريم أن يتحدث عن علم الله المحيط بكل شىء فلا يعبر عن ذلك بأسلوب عقلى بل يعرضه فى هذا المشهد المبدع •

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » (٢) •

---

(١) النحل : ١٠ ـ ١٧ •　　(٢) الأنعام : ٥٩ •

فيصور لنا علمه سبحانه المحيط بكل هذه الدقائق ويترك للخيال أن يتتبع هذه الجزئيات التى لا يستقصيها خيال فتمتلىء نفوسنا اكبارا لصفاته سبحانه وتتملكها هيبته وجلاله ٠

وهكذا تبدو قدرة الله البالغة وعلمه المحيط بكل شىء فى هذه المشاهد المتتابعة ، ويظل الخيال يتابعها ، يحلق بين مظاهر الطبيعة ويجوب أقطار الأرض والسموات ، والحواس تتأملها كأنها حاضرة مشاهدة ، فيستقر فى القلب معنى قدرته سبحانه وتمتلىء النفوس مهابة وتستشعر عظمة هذا الخالق العظيم ٠

ولنستمتع بنص آخر يصور نعيم الأبرار فى الآخرة ٠ قال تعالى :

« ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ٠ عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ٠ يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ٠ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ٠ انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ٠ انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ٠ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ٠ وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ٠ متكئين فيها على الأرائك ، لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ٠ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ٠ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ٠ قواريرا من فضة قدروها تقديرا ٠ ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ٠ عينا فيها تسمى سلسبيلا ٠ ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ٠ واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ٠ عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ٠ ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » (١)

فنشم رائحة الجنة ونستروح نسماتها ونرى مباهجها ٠

وهذا كثير فى القرآن الكريم ، وبالبحث تحليل لنماذج أخرى يمكن الرجوع اليها ٠

* * *

---

(١) الانسان : ٥ ـ ٢٢ ٠

الأســلوب القصصى

آثرنا أن يكون حديثنا عن الأســلوب القصصى فى نهاية الحديث عن الأساليب المصورة فى القرآن الكريم ، لا لأنه يأتى فى نهايتها من حيث التأثير ولكنه لأنه يستمد تأثيره المميز من روافد عدة تتجمع فى هذا الأسلوب فتمنحه قدرة على التأثير القادر على استهواء القلوب والامســـاك بمقاليد النفس البشرية يقودها فتنقــاد ويوحى اليها فتســـتجيب ويلقنها فتتقبل فى رضـــا وابتهاج ٠

فهو مؤثر بتصويره للحوادث والمشاهد ، ورسمه للشخصيات وملامحها وأعمق خلجاتها النفسية ، ومؤثر باتكائه على غريزة حب الاســـتطلاع فى النفس البشرية ، حين يستحوذ على مشاعر القارىء ، فلا يدعه يلتقط أنفاسه أو يفتر اهتمامه قبل أن يصل به الى نهاية القصة ، ويستوعب الدرس الذى توحى به ، وهو مؤثر بقدرته على الاثارة والتشويق بما يتخلله من مفاجآت تكون كالهزات العنيفة التى تثير الانتباه ، وتذكى الشوق الى متابعة القصة . وهو مؤثر باستعانته بالخيال حين يترك فجوات فى ســياق الأحداث ، تاركا للخيال أن يستكملها بتصوره ، ليجعل من الأحداث بنية متلاحمة متصلة ، ثم هو مؤثر بما يبثه فى تضاعيف عرضه المصور من عظات وتوجيهات دينيـــة بطريقة لا تشعر القارىء بأنها دخيلة على السياق القصصى للقرآن « اذ أنها تحمل الروح التركيبية الرائعة التى تشمل ما قبلها وما بعدها من الآيات» (١)

ولنمض فى تفصيل ذلك مع ذكر شواهد له :

● **التصوير فى الاسلوب القصصى :**

اذا كان التصوير هو الأداة المفضلة فى عرض القرآن الكريم لقضـــاياه فى مختلف الأساليب فان التصوير فى الأسلوب القصصى يأتى فى صورة هى أتم وأوفى ، ذلك لأن التناسب بين التصـــوير وطبيعة القصة أقوى وأكمل ، فالقصة بطبيعتها أحداث تروى مواقف شارك فى صنعها آدميون عاشـــوا حياتهم الانســـانية كاملة بما فيها من خير وشر ، وصراع وتوافق ، فأحبوا وكرهـــوا ، وبنـــوا وهـــدموا وتقـــاتلوا وتصـــالحوا ، وحـــزنوا

---

(١) ألبيان القرآنى ص ٢٠٦ ٠

وفرحوا وبغوا وعدلوا ، وقسوا ورحموا ، واستعلوا على شهواتهم وانقادوا لها ، كل ذلك يجد في التصوير أداته القادرة على ابرازه في مشاهد ولوحات ، فاذا القصة حادث يقع ، ومشهد يجرى ، وصراع يتملاه الخيال ، وتراه العيون ، وتسمعه الاذان ، والنفس تتلقى كل ذلك فيترسب في أعماقها فيض من الانطباعات التي تؤثر في سلوكها وتحدد اختيارها ٠

والقرآن في قصصه لا يعمد الى كل ذلك الحشد من الحوادث والمواقف فيصوره في تتابع ليأتي عليه كله ، بل ان القصص القرآني مرتبط بالغرض الديني فهو يسوق القصة في مقام يقتضيها ، ولهدف محدد يرمي اليه ، ومن ثم يختار من الحوادث والمواقف ما يحتاجه المقام ويصيب به الهدف المقصود٠ ولهذا نرى القصة الواحدة تكرر مرات عديدة في مقامات مختلفة ، ويختار منها في كل مقام ما يناسب الغرض المذكورة من أجله ٠ وربما كان الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هو قصة يوسف عليه السلام ٠ اذ ذكرت تامة كاملة مرة واحدة ٠

ولنأخذ ـ للتصوير القرآني للمشاهد والمواقف ، وما يلابسها من نزعات وعواطف ـ مثالا من قصة مريم عليها السلام في السورة المسماة باسمها ٠

والغرض الذى سيقت له القصة هو بيان الحق في شأن عيسى عليه السلام وولادته من غير أب ، ونفى ما نسجه النصارى حوله من دعاوى زائفة ، رتبوا عليها ادعاء الوهيته ، أو انه ابن الاله الى آخر ما قالوه ٠ وقد اختار القرآن الكريم في هذا المقام من المشاهد ما يفى بهذا الغرض ، معقبا عليه بتقرير الهدف من القصة في قوله تعالى :

« ذلك عيسى ابن مريم ، قول الحق الذى فيه يمترون ٠ ما كان لله أن يتخذ من ولد ، سبحانه ، اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون ٠ وان الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم » (١) ٠

أما المشاهد التى أختارها القرآن الكريم فهى مرتبة على النحو التالى : تبدأ بمشهد يمثل مريم بعد أن بلغت مبلغ النساء ، وقد انتحت مكانا بعيدا واتخذت حجابا يسترها عن أعين الناس لشأن من شئونها ، يقتضى ألا يراها أحد ، ويفاجئها الملك وهى في خلوتها فينتابها الفزع ويدور بينهما حوار ينتهى باستسلامها لأمر الله ويحدث الحمل ٠

---

(١) مريم : ٣٤ ـ ٣٦ ٠

« واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا • فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا • قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا • قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا • قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا • قال كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا » (١) •

المشهد الثانى : يصورها وقد حملت بابنها ، وخافت أن يطلع أهلها على ما بها ، فآثرت البعد عنهم ورحلت الى مكان بعيد ، وهناك تعانى آلاما لا قبل لها بها ، فهى تعلم أنها تؤدى دورا اصطفاها الله له ولكنها تدرك كذلك أن أحدا لن يصدقها فيما ستذكره من تفسير لحملها بهذا الوليد بلا أب ، ثم تجتمع عليها الآلام الجسدية والنفسية عند الوضع فتكاد مقاومتها تنهار ، وتتمنى لو ماتت قبل أن تتعرض لكل ذلك ، ولكن الرحمن يفرج عنها ذلك كله فى لحظة ويبرىء جراحها وترى من الآيات ما يملؤها ثقة به تستهين معها بكل شىء •

« فحملته فانتبذت به مكانا قصيا • فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا • فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا • وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا • فكلى واشربى وقرى عينا ، فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا » (٢) •

المشهد الثالث : يمثلها وقد عادت تحمل ابنها الى قومها ، فيواجهونها بما هو متوقع منهم ، بالتأنيب والسخرية ، ويقفونها موقف المسئول عن جريمة ارتكبتها ، ولكن المعجزة الالهية تنهى الموقف كله ، وينطق الله الوليد ليخبر القوم بالحقيقة •

« فأتت به قومها تحمله ، قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا • يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا • فأشارت اليه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا • قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا • وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا • وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا • والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » (٣) •

---

(١) مريم : ١٦ ـ ٢١ •
(٢) مريم : ٢٢ ـ ٢٦ •
(٣) مريم : ٢٧ ـ ٣٣ •

وتنتهى المشاهد عند هذا الحد ، فقد استوفى الغرض المسوقة له القصة ما يحتاجه من بيان ، ولم يبق الا أن يعقب القرآن عليها بما يبلور مغزاها ويقرر ما دلت عليه ٠

والمشاهد كما نرى تنقلنا الى مسرح الأحداث وتعرضها علينا بعد أن منحتها الحياة ، وجعلتها تجرى تحت أبصارنا وبصائرنا ٠

ولنلق نظرة على قدرة النص على تصوير المشاعر التى صاحبت هذه الأحداث ، وجعلتنا نشارك أصحابها انفعالهم ونتجاوب معهم ٠

فها هى ذى مريم ـ تلك الفتاة العذراء الطاهرة ـ تريد الخلوة فتحتاط ألا يراها انسان ، وتتخذ الحجاب ، ولكنها تفاجأ بشاب وسيم أمامها ولنا أن نتخيل ما أصابها من ذعر وفزع ، وماذا تملك وهى فتاة لا حول لها ولا طول وماذا تفعل ؟ فلنستمع الى القرآن يعبر عن فزعها فى قوله « **قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا** » ٠

وعندما يجيبها الملك الكريم موضحا مهمته لا يجدى ذلك فى طمأنتها ونزع الشك من نفسها ، فقد تكون خدعة دبرها ذلك الذى اقتحم عليها خلوتها فنراها لا تستسلم له بل تعمد الى الاستيثاق من الأمر فتسأله : « **أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا** » ؟

وعندما يقضى أمر الله وتحمل استجابة لقضائه وترحل بعيدا عن قومها تنتابها الهواجس ، وتتداعى عليها الهموم ٠ كيف ستواجه قومها ، وهم أهل عبادة وطهر وغيرة على الشرف والعرض ؟ وكيف ستفسر لهم ما حدث ؟ ثم يضاف الى آلامها النفسية آلام جسدية مما يصاحب الوضع فتخور مقاومتها ، وتهن عزيمتها ، ولنستمع الى القرآن يعبر عن ذلك بقوله على لسانها : « **يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا** » ٠

ولكن تطورا مفاجئا يبدل كل شىء ، وينهى أزمتها ، ويبرىء جراحها المادية والمعنوية ، فترى من آيات الله ما يرد اليها يقينها ، ويملؤها ثقة تواجه بها العالم ، وتتحدى الدنيا ، فاذا بها تعود غير مكترثة لشىء تحمل ابنها فى اعتزاز وفخر ، مؤمنة بأن الله الذى رأت فضله وقدرته لن يتخلى عنها مصدقة بوعده ملتزمة بأمره ، وعندما تبدأ محاكمتها أمام قومها بالسخرية اللاذعة ، والتوبيخ المهين ، لا يحرك ذلك ساكنا فيها ، ولا تهتز ثقتها فى الله ولا تزيد عن أن تشير الى ابنها « **فأشارت اليه** » انه الاطمئنان القلبى لنصر الله ورعايته ٠

ولكن قومها معذورون ، فهى تحدثهم بما لم يعهدوه ، فلا تقنعهم اجابتها بل يرون فيها تهكما بهم ، واحتقارا لهم ، فيردون عليها وهم فى ذروة انفعالهم منكرين ذلك عليها « **كيف نكلم من كان فى المهد صبيا** » ٠

تلك قدرة التصوير على ابراز المشاعر والتعبير عن أعمق الانفعالات تجعلنا نشارك أبطال القصة مشاعرهم فنحس نحو مريم بالاشفاق عليها ، والتعاطف معها فى محنتها ، والاعظام لشأنها والاعجاب بقوة يقينها ، ونتمنى لو كنا هناك لندفع عنها الأذى ونرد على لائميها ٠

● **التشويق فى الأسلوب القصصى :**

التشويق عنصر أساسى من عناصر القصة الناجحة ، بل هو العنصر المميز للأسلوب القصصى من غيره من الأساليب الأدبية ، وهو الذى يمنح القصة تلك القدرة الخارقة على اغراء القارىء والاستحواذ على مشاعره وشده الى موضوع القصة حتى يفرغ منها تماما ٠ ولهذه الميزة اتخذ المصلحون والدعاة والفلاسفة القصة قالبا لعرض أفكارهم والاقناع بنظرياتهم ، مما جعلها أكثر الفنون الأدبية شيوعا فى هذا العصر ٠

ويتحدث النقاد عن شروط التشويق الناجح فى القصة ، وضرورة أن يكون هناك عقدة تتولد عن الاحداث ثم تتجه الأحداث الى حلها الى آخر ما قيل فى الموضوع ، ولكن القرآن الكريم وهو القمة فى البيان « لا يخضع لمقاييس فنية ، تروج حينا ، وتكسد حينا آخر ، بل يسمو عليها بسمو مصدره فاذا وافقها من ناحية فذلك كسب قوى لها ، يزيدها أصالة وقوة ، واذا خالفها فى ناحية فلأنه أعلى من أن يحد بمقياس يخطىء ويصيب » (١)

وعلى هذا نقول : ان عنصر التشويق فى القصص القرآنى هو حقيقة لا سبيل الى انكارها ، وانه يؤدى دوره كاملا ، وانه ينبع من مصادر متعددة ٠

فأحيانا يبتدىء القصص القرآنى بالتشويق ،ولنقرأ سورة الفيل فنجدها تبدأ بهذه الآية الكريمة : « **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل** » ؟ (٢) وهو تساؤل يثير الاهتمام ، ويبعث على التنبه لمعرفة حقيقة الأمر ، ويثير فى النفس ما جبلت عليه من التطلع لمعرفة ما تجهل ٠

---

(١) البيان القرآنى ص ٢٠٠ ٠ (٢) الفيل : ١ ٠

كما نجد هذا اللون من التشويق أيضا فى قصة يوسف اذ تبتدأ بقوله تعالى : « **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين** » (١) ٠

وأحيانا يأتى التشويق من أن يعمد القرآن الى ذكر موجز القصة فى أولها ، ثم يمضى بعد ذلك فى ذكر تفاصيل هذا الملخص ، والقارىء متطلع الى استكمال الصورة التى سبق أن علم بمجملها ٠ ومثال ذلك قصة أصحاب الكهف فقد بدأت بهذا الملخص :

« **أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ٠ اذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا ٠ فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ٠ ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا** » (٢) ٠

وهكذا تلخص القصة ، ثم تأتى التفصيلات بعد ذلك ٠ وهذا من البلاغة فى الصميم فهو ما سماه البلاغيون البيان بعد الابهام ، أو التفصيل بعد الاجمال ، وعدوه من وسائل تثبيت المعانى فى النفس لتطلعها الى ما يثيره الابهام والاجمال من تشوق الى التفصيل والبيان ٠

يقول صاحب القرآن والقصة الحديثة « ان هذا اللون من التشويق لم ولن يجد أى مؤلف قصصى فى العالم القدرة أو الجرأة على محاكاته لأن كل مؤلف قصصى يحرص كل الحرص على أن يشد انتباه القارىء ، ويجعله ملهوفا على متابعة وقائع قصته ، ولا شك فى أن المؤلف اذا ذكر فى مقدمة القصة ملخصا لوقائعها أفسد التشويق وجعل القارىء عازفا عن متابعة حوادثها ٠

ولكن الله ـ جلت قدرته ـ ابتدأ قصة أصحاب الكهف بملخص لحوادثها فهل أطفأ هذا الملخص الرغبة فى معرفة التفاصيل ؟ كلا ٠ لقد أثارت الآية الكريمة التالية اللهفة العارمة لمعرفة هذه التفاصيل « **نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ٠٠٠** » (٣) ٠

---

(١) يوسف : ٣ ٠ (٢) الكهف : ٩ ـ ١٢ ٠

(٣) القرآن والقصة الحديثة ص ٣٤ ـ ٣٥ ـ والآية من سورة الكهف : ١٣ ٠

وأحيانا يكون التشويق بسبب الترابط القوى بين المناظر المصورة للأحداث كما رأينا فى قصة مريم ، حيث جاءت المناظر متتابعة كأنها استجابة لما يثيره المنظر السابق من تساؤلات ، فيأتى المنظر التالى ليرضى تلك الرغبة ، وليثير طائفة أخرى من التطلع الى المعرفة يلبيها ما بعده ، وهكذا حتى تنتهى المشاهد دون أن يقحم منظرا لا يتطلبه الموقف ، ولا يضيف جديدا للغرض المقصود تاركا للخيال سد الفجوات ، وتخيل ما بين المناظر ، وهذا يحقق للقصة أمرين مهمين : أولهما مواصلة التشويق بتنقيتها من كل ما لا يحتاج اليه مما يعبر عنه بالأجزاء الميتة • وثانيا استنفار الخيال كى يشارك فى تماسك بنائها واثراء تأثيرها •

وأحيانا يكون هناك سر ما فيظهره النص للقارىء ، ويخفيه عن أبطال القصة ، فيثير الشوق فى نفس القارىء ليتابع الأحداث ، ويرى كيف سيكون موقف الأبطال عندما يفاجأون بالسر ، وذلك كما فى قصة أصحاب الجنة : « **اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين • ولا يستثنون • فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون • فأصبحت كالصريم** » (١) فالقارىء علم مصير الجنة ، ولكن أصحابها غافلون عنه فتراهم فى التصوير القرآنى يتنادون مبكرين لينفذوا ما اعتزموه ، ويتابعهم القارىء ساخرا شامتا عندما يصدمهم هول الكارثة •

وأحيانا يأتى التشويق من المفاجآت التى تتخلل السرد ، فتجدد النشاط وتزيد حدة الانفعال •

كل هذه وغيرها جوانب للتشويق فى القصص القرآنى تمده بمصدر من مصادر تأثيره ، وتجعله سلاحا مرهفا فى يد الداعية يصل به الى قلوب المدعوين •

● **مزج التوجيهات الدينية بسياق القصة :**

اذا كانت القصة وسيلة لابلاغ الدعوة فان تضمينها الأفكار والتوجيهات الدينية يصبح هدفا أساسيا من أهدافها ، ولهذا نرى ذلك فى كل القصص القرآنى ، وقد سبق أن أشرنا الى تعقيب القرآن على قصة مريم بقوله « **ذلك عيسى ابن مريم ، قول الحق الذى فيه يمترون** ••• » (٢) الآيات •

---

(١) القلم : ١٧ ـ ٢٠ •　　(٢) مريم : ٣٤ •

وكذلك نقرأ فى غمار قصة يوسف دعوته لصاحبيه فى السجن الى التوحيد « **يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار · ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان . ان الحكم الا لله ، أمر ألا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » (١) ·

وفى قصة أصحاب الجنة نقرأ قوله تعالى : « **قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون · قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين** » الى قوله تعالى : « **عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها انا الى ربنا راغبون** » ·· (٢) ثم يقرر مغزى القصة بقوله تعالى « **كذلك العذاب ، ولعذاب الآخرة أكبر ، لوكانوا يعلمون** » (٣) ·

اذن فهى ظاهرة يقتضيها ارتباط القصص القرآنى بالغرض الدينى · والقرآن الكريم يسوق توجيهاته تلك متلطفا فى ذلك بما يجعلها جزءا ملتحما بالسياق مرتبطا به أوثق ارتباط ، فتأتى فى غمرة التأثر بالتصوير المبدع والتشويق المثير ، فيسوقها وقد تهيأت لها القلوب ، وأصبحت النفوس كأنها أوعية مفتوحة يصب فيها ما يريد ، فتتقبله راضية مطمئنة ، فتصيب توجيهاته موطن الداء ، وتتمكن هناك فى قرارها المكين ·

هذه أهم جوانب التأثير فى الأسلوب القصصى فى القرآن الكريم التى جعلت منه خير وسيلة لابلاغ الدعوة والاقناع بها وكلها ترتكز على ما فى التعبير من فنون بلاغية ، تجعل الكلام مطابقا لما يقتضيه المقام ·

وبعد ·· فهذا هو التصوير القرآنى بألوانه وفنونه جعل منه القرآن وسيلته الأولى فى التعبير عن كل أهدافه لما رأينا من قدرته على التأثير والافادة التى لا تتأتى لغيره من الوسائل ·

● وسائل فنية تضاعف قدرة التصوير على التأثير :

بقيت كلمة لابد من اضافتها فى نهاية الحديث عن التصوير القرآنى خاصة بالوسائل الفنية التى يستخدمها القرآن لتضاعف من قدرة التصوير على التأثير ، ونوجز هنا أهم هذه الوسائل :

---

(١) يوسف : ٣٩ ، ٤٠ ·　　(٢) القلم : ٢٨ ـ ٣٢ ·

(٣) القلم : ٣٣ ·

● **استحضار الصورة :**

ويعمد القرآن فى تحقيق هذا الهدف الى ايثار صيغة المضارع التى تجعل المشهد كأنه حاضر مشاهد تراه العين وتسمعه الأذن ·

ولنأخذ مثالا لذلك قوله تعالى : « **ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون** » (١) فيستخدم صيغة المضارع فى قوله « يحشر » و « يوزعون » فنرى أعداء الله أمامنا ، وكأن ما سيقع لهم حاضر مشاهد ·

ولنتأمل قوله تعالى : « **وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض** » (٢) فيستخدم الفعل « نرى » للغرض نفسه ·

وقوله تعالى فى وصف نعيم الجنة « **متكئين فيها على الأرائك ، لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا** » (٣) فيعبر بقوله « لا يرون » ليستحضر المشهد ويبرزه ·

ونسمع وصفه للذين يريدون الحياة الدنيا من قوم قارون وقد خرج عليهم فى زينته فأخذوا بما رأوا ، ثم بعد أن خسف الله به وبداره الأرض فعادوا الى رشدهم « **وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون** » (٤) فيأتى بصيغة المضارع فى قوله « يقولون » ·

وأمثلة هذا كثيرة فى القرآن الكريم ، وقد تضمن البحث عددا كبيرا منها فليرجع اليه تجنبا للتكرار · وهذا لون بلاغى يقوم على أسلوب الاستعارة فى الفعل باعتبار زمنه فيستعار الفعل المضارع للماضى لابراز الصورة ·

● **اطالة المشهد :**

المشاهد التى يصورها القرآن الكريم تلقى فى النفس بانطباعات مناسبة لما يريد القرآن أن يوحى به ، ويريد القرآن أن يعمق هذه الانطباعات فى النفوس لتكون أقوى فى التأثير ، فيعمد الى اطالة المشهد ، لتتعرض له النفس

---

(١) فصلت : ١٩ ·
(٢) الانعام : ٧٥
(٣) الانسان : ١٣
(٤) القصص : ٨٢ ·

زمنا أطول ، وتعيش فى جوه مدة أكبر ، فيكون لذلك أثره فى استقرار هـذه الانطباعات وتمكنها فى النفوس ، ومن ثم تأخذ النفس من أقطارها ، وتملأ كل جوانبها ، وتقودها الى الاستجابة لما توحى به ٠

ولنقرأ قوله تعالى فى مقام تصوير حال المؤمنين وما تفيض به جوانحهم من الخشوع لله والضراعة اليه والأمل فى فضـــله وما أعد لهم من الجـزاء استجابة لدعائهم ورضـــا عنهم ليكون فى ذلك ما يدعو الى الاقتداء بهم ٠ « **ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب٠ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ٠ ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار ٠ ربنا اننا سمعنا مناديا ينـادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ٠ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ، انك لا تخلف الميعاد ٠ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله . والله عنده حسن الثواب** » (١) ٠

« فمن ذا الذى لا تحدثه نفسه فى أثناء هـذا المشـــهد الطويل الفائض بالخشوع والخضوع ، الحافل بالتأثر العميق ، وفى أثناء هذا السرد العظيم المفصل لتضحيات المؤمنين ، وللجزاء الذى ينتظرهم يوم الدين ٠٠ من ذا الذى لا تحدثه نفسه أن يسلك مع « **أولى الألباب** » هؤلاء ، يدعو دعاءهم ، ويخشع خشوعهم ويستجيب له ربه معهم ، فينال مثل ما نالهم ؟ » (٢)

وهذا من البلاغة وفنونها اذ هو اطناب يقتضيه المقام ليحقق غاية يرمى اليها النص الكريم ٠

---

(١) آل عمران : من ١٩٠ ـ ١٩٥ ٠

(٢) التصوير الفنى فى القرآن ص ١١٧ ٠

● **الحـوار :**

يستخدم القرآن الكريم عنصر الحوار فى رسم المشاهد ، ليزيده تأثيرا بما يمنحـه من حركة ، ويضفى عليه من حيـوية تزيد فى تمثله ووضوحه · **وامثلة ذلك كثيرة فيما سبق أن درسناه من نصوص ولكننا نعرض هنا نموذجا** لهذا الحوار الذى يضاعف قدرة التصوير على التأثير ، ويجعل المستمع يحس أنه حاضر بين القوم يرى حالهم ويتابع حركتهم ويسمع حوارهم · قال تعالى :

« **وما تجزون الا ما كنتم تعملون · الا عباد الله المخلصين · أولئك لهم رزق معلوم · فواكه ، وهم مكرمون · فى جنات النعيم · على سرر متقابلين · يطاف عليهم بكأس من معين · بيضاء لذة للشاربين · لا فيها غول ولا هـم عنها ينزفون · وعندهم قاصرات الطرف عين · كأنهن بيض مكنون · فأقبـل بعضهم على بعض يتساءلون · قال قائل منهم انى كان لى قرين · يقول أئنك لمن المصدقين·أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون·قال هل أنتم مطلعون· فاطلع فرآه فى سواء الجحيم · قال تالله ان كدت لتردين · ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين · أفمـا نحن بميتين · الا موتتنـا الأولى ومـا نحن بمعذبين** » (١)

وهكذا تتم للتصوير كل عوامل التخييل فالعين ترى والأذن تسـمع والخيال يتابع والنفس تنفعل وتستجيب لما يوحى به المشهد الحى الماثل ·

هذا وهناك وسائل فنية أخرى كاختيار الألفاظ ذات الايحاء الخـاص أو الجرس الخاص ، والاستعانة بالتناسق بين أجزاء المنظر ، وبالنغم الصوتى المناسب وغيرها ، ولكننا سنرجىء الحديث عن هذه الوسائل لأننا سنعالجها فى مواطن أخرى نراها ألصق بها ، والله المستعان ·

* * *

● **ثانيا ـ التوكيد والتكرير :**

تحدثنا فى فصـل الدعوة والداعية عن التوكيد والتكرير وأثرهما فى تثبيت المعنى حتى يصبح عقيدة راسخة فى نفوس المخاطبين ، وأشرنا الى أنه من أهم وسائل التأثير فى المخاطبين أفرادا كانوا أم جماعات ·

---

(١) الصافات : ٣٩ ـ ٥٩ ·

والقرآن الكريم ـ باعتباره كتاب دعوة فى المقام الأول ـ يركز على استخدام هذا الأسلوب المؤثر لتثبيت معانيه فى نفوس قارئيه وتقرير قضاياه فى أفئدتهم · لينبثق عنها السلوك الفاضل الصادر عن ايمان مكين واقتناع راسخ ·

ويتوسع القرآن الكريم فى استخدام هذا الأسلوب توسعا يتجاوز به أساليبه المصطلح عليها ، فيؤكد معانيه بطرق متعددة ، مما يجعلنا نحن أيضا نتوسع فى مفهوم التوكيد ، فنجعل منه كل أسلوب نلحظ فيه تقوية للمعنى وتأكيدا للغرض الذى سيق التعبير لتأكيده ودعمه ·

ولا يقتصر استخدام هذا الأسلوب فى القرآن الكريم على غرض دون غرض ، بل ان القرآن الكريم يكاد يستخدمه فى التعبير عن قضاياه كلها ، فهو يؤكد صفاته تعالى ، ويؤكد حين يعد أو يوعد ، ويؤكد حين يدعو للعقائد ، وحين يدعو للعبادات ، وحين يدعو للمعاملات ، ويؤكد كلما كان الخبر محل انكار أو شك ، وكلما توغل الخبر فى الشك زادت ألوان التأكيد لانتزاع الشك من جذوره · وهذا كله تأكيد يلاحظ فيه حال المخاطب ·

وهناك لون من التأكيد القرآنى يلاحظ فيه حال المتكلم وهو اللون الذى قال عنه عبد القاهر فى ـ ان : انها قد تدخل للدلالة على أن الظن قد كان منك، أيها المتكلم فى الذى كان أنه لا يكون ، فتجعلك كأنك ترد على نفسك ظنك الذى ظننت ، وتبين الخطأ الذى توهمت ، وعلى ذلك ـ والله أعلم ـ قوله تعالى حكاية عن أم مريم : « **قالت رب انى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت** » (١)

وقريب من هذا النوع قوله تعالى على لسان أصحاب الجنة ، وقد فوجئوا بها محترقة كالصريم فذهلوا عن أنفسهم ، ولم يصدقوا أنها جنتهم ، فعبروا عن ذلك بقولهم : « **انا لضالون** » (٢) معبرين عن ضلالهم تعبير الواثق مما يقول ، وهذا يشير الى شدة ذهولهم ومبلغ وقع المفاجأة على نفوسهم ·

كما يراد به تصوير ثقة المتكلم فيما يقول مثل قوله تعالى « **انما أوتيته على علم عندى** » (٣) فقارون يعبر بهذا عن ثقته فيما يقول وأنه لا يرى سببا لحصوله على تلك الأموال سوى جدارته وعلمه ، فليس لأحد فضل عليه ·

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٥٢ ـ والآية من سورة آل عمران : ٣٦ ·

(٢) القلم : ٢٦ · (٣) القصص : ٧٨ ·

كما يستخدم التوكيد فيما لا شك فيه ولا انكار،مما يطلق عليه فى البلاغة اخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، كما فى تأكيده سبحانه لوقوع الموت فى قوله : « **ثم انكم بعد ذلك لميتون** » (١) مع أن الموت مما لا ينكر ، ولكنه نزل المخاطبين منزلة من يبالغ فى انكاره ، فأكد لهم الخبر بمؤكدين ، لتماديهم فى الغفلة والاعراض عن العمل لما بعده ، حتى لكأنهم ينكرون وقوعه ٠

● **ألوان التوكيد ووسائله :**

يستخدم القرآن الكريم كل وسائل التوكيد الاصطلاحية ، وجميع ألوانه وصوره ٠ ولنقرأ قوله تعالى مؤكدا وعده للمؤمنين :

« **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** » (٢) ٠

المقام هنا مقام تأكيد ، فالآية ترغب فى الايمان والعمل الصالح وتعد من يستجيب لداعى الايمان بهذا الوعد الكريم ، فكان لزاما أن يؤكد هذا الوعد لتتمكن الثقة به فى النفوس ، وتتجه الى ما يحقق لها كل هذا الخير ٠

ونلاحظ أن وسائل التأكيد فى النص متعددة تضم ما يأتى :

— القسم المحذوف الذى دخلت اللام على جوابه ٠

— اللام الداخلة على جواب القسم ٠

— نون التوكيد الثقيلة فى « **ليستخلفنهم** » و « **وليمكنن** » و « **ليبدلنهم** »٠

---

(١) المؤمنون : ١٥ ٠ (٢) النور : ٥٥ ٠

ـــ اسمية الجملة فى قوله « **فأولئك هم الفاسقون** » ·

ـــ ضمير الفصل « **هم** » ·

وتلك من وسائل التأكيد الاصطلاحية ولكننا نلحظ فى الآية مصادر أخرى للتأكيد تضمنها النظم واقتضاها المقام وكلها من ألوان البلاغة التى عبر بها لغرض التأكيد ، نشير الى بعضها : ·

ـــ اسناد الوعد الى الله « **وعد الله** » للاشارة الى تحقق وقوعه ·

ـــ التعبير عمن يتعلق بهم الوعد ـ باسم الموصول « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات** » ليفيد أنه شامل لكل من تتحقق فيه الصفات التى تنص عليها الصلة ، وهذا يجعل هذا الوعد سنة مطردة فى كل زمان ومكان وذلك يعطى الوعد تأكيدا وامتدادا يوحى للنفوس بالثقة والاطمئنان اليه والعمل بما يوجبه ·

ـــ التنظير الذى تبرزه الآية : « **ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم** » هذا التنظير يؤكد الوعد لأنه تحقق لمن قبلهم من المؤمنين ·

ـــ ما فى التعبير من استعارة التمكين لمعنى التثبيت فالمراد : ليجعلن دينهم ثابتا ، والتعبير بالتمكين آكد وأقوى فى الدلالة على ثبات الدين وسلامته من التغيير لأنه يخيل أنه شىء مستقر على الأرض ، وأن ثباته مستمد من ثباتها واستقرارها ·

ـــ التشويق الذى يحدثه تقديم « لهم » على المفعول الصريح « **دينهم** » ففى المسارعة الى بيان أن الموعود به من منافعهم يحدث تشويقا اليه وترغيبا لهم فى قبوله عند وروده ، وذلك يمهد للمعنى فى النفس ويثبته ·

ـــ اضافة الدين لهم فى قوله « **دينهم** » وهو دين الاسلام فيه اثارة للاعتزاز به ، وتأليف لقلوبهم ·

ـــ وصف الدين بارتضائه لهم ، فيه أيضا مزيد ترغيب فيه وفضل تثبيت عليه ·

هذا نموذج من استخدام القرآن الكريم لمختلف أساليب التأكيد الاصطلاحية ، واضافته اليها وسائل أخرى تمنح المعنى قوة وثباتا ، وهى

وسائل لا يمكن حصرها · ولكننا سنخص بعضها بالذكر لأهميتها فى مجال التأثير ، وشيوع استخدامها ، كأنها أصبحت سمة من سمات التعبير القرآنى ·

● **أسلوب القسم :**

لأسلوب القسم خصائص تمنحه القدرة على التأثير وتجعل المتكلم يختاره ليستعين بهذه الخصائص اذا كان المقام يقتضيها ·

وأول خصائص أسلوب القسم أنه يقوم بدور التهيئة النفسية للمخاطب باثارة انتباهه لما سيخبر به · فيستقبله مستجمعا حواسه مركزا فكره وانتباهه اليه · وذلك لأن الانسان اذا حلف على شىء كان ذلك دالا على أهميته وأنه مما تجب العناية به والاقبال عليه · ولعل مما يكشف عن التأثير النفسى للقسم ما روى عن بعض الأعراب أنه : لما سمع قوله تعالى « **وفى السماء رزقكم وما توعدون · فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون** » (١) صرخ وقال : من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف ؟ » (٢) ·

ثانيا : ان القصد من الحلف هو توكيد الاخبار به ، وللتوكيد تأثيره فى تمكين المعانى فى النفس ·

ثالثا ـ ان القسم يكون بشىء عظيم ، وذكر المقسم به يلقى فى النفس مهابة ، ويوحى اليها بمعان تجعلها أكثر استعدادا للتصديق والقبول ·

ونذكر هنا بعض ما أقسم القرآن به لقيمته فى مجال التأثير الذى هو هدفنا فى هذا الفصل ·

يقسم سبحانه بذاته ، فيقسم بالرب ، ويضيفه أحيانا الى بعض مخلوقاته مثل قوله تعالى « **فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون** » ·· لما فيه من الاشارة الى خضوع السماء والأرض لأمره ، وفى هذا تعظيم لشأنه،

---

(١) الذاريات : ٢٢ ، ٢٣ ·

(٢) الاتقان فى علوم القرآن ج ٢ ص ١٣٣ ·

وايحاء بأن من كان هذا أمره لا يزج باسمه الا فيما لا مرية فيه (١) ٠

وقد يضيفه الى الرسول مثل : « **فوربك لنحشرنهم والشياطين** » (٢) ٠ كأنه يوحى بذلك بأن أرباب المشركين ليست جديرة بالحلف بها (٣) ٠

كما يقسم بمخلوقات الله لما فيه من روعة تدفع الى التفكير فى خالقها مثل قوله تعالى : « **والشمس وضحاها ٠ والقمر اذا تلاها ٠ والنهار اذا جلاها ٠ والليل اذا يغشاها ٠ والسماء وما بناها ٠ والأرض وما طحاها ٠ ونفس وما سـواها ٠ فالهمها فجورها وتقواها ٠ قد أفلح من زكاها ٠ وقد خاب من دساها** » (٤)

وواضح ما فى كل واحد من المقسم به من عظمة تثير أقوى أحاسيس الاعجاب بخالقه ، وما فى تتابعها من تأكيد يوحى بالثقة واليقين ٠

هذا ونشير الى ما لاحظه صاحب الكشاف من أن أحسن القسم ما لوحظت فيه العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه ، فى مثل قوله تعالى : « **حم ٠ والكتاب المبين ٠ انا جعلناه قرآنا عربيا** » (٥) ، « **فقد أقسم بالكتاب** المبين وهو القرآن وجعل قوله : « **انا جعلناه قرآنا عربيا** » جوابا له ، وهو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه وكونهما من واد واحد » (٦) ٠

● أسلوب التكرير :

لقد احتفى القرآن الكريم بأسلوب التكرير احتفاء عظيما ، وأكثر من استخدامه حتى صار سمة من سماته ، وقد سبق أن تحدثنا عن الأثر النفسى للتكرير فى تثبيت المعنى وتقريره حتى يصبح عقيدة راسخة ، وان ذلك شىء هديت اليه الفطرة الانسانية ، فلجأ الى تأكيد كلامه للسامع بتكرار ما يريد نقله اليه لما رأى من أثر ذلك فى تثبيت المعانى وتأكيد الأفكار لديه ٠

---

(١) من بلاغة القرآن ص ١٧٠ ٠ (٢) مريم : ٦٨ ٠

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة ٠ (٤) الشمس : ١ ـ ١٠ ٠

(٥) الزخرف : ١ ـ ٣ ٠

(٦) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٣٦٠ ، وكتاب البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص ٣١٥ ٠

ونستأنس هنا بما ذكره صاحب الكشاف فى تعليقه على هذا الأسلوب وبيان أثره فى النفس ، فقد قال عند شرحه لقوله تعالى : « **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم** » (١)

« قوله تعالى « **مثانى** » بيان لكونه متشابها ، لأن القصص المكررة لا تكون الا متشابهة . والمثانى جمع مثنى ، بمعنى مردد ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبائه واحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه ثم قال : فان قلت : ما فائدة التثنية والتكرير ؟ قلت : النفوس أنفر شىء عن حديث الوعظ والنصيحة فما لم يكرر عليها عودا على بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله ومن ثم كانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات وسبعا ليركزه فى قلوبهم ويغرسه فى صدورهم » (٢) .

وللتكرار صور كثيرة فى القرآن الكريم نذكر منها :

— قد يكون المكرر كلمة مثل قوله تعالى « **ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم** » (٣) . فقد كررت « ان » لطول الفصل بين « ان » الأولى وخبرها فاقتضت البلاغة تكريرها ، ومثل ذلك تكرير لفظ « ربك » .

— قد تكرر آية بجملتها وأوضح ما يكون ذلك فى كل من سورة الرحمن والقمر . والمرسلات ، ففى الأولى تكرر قوله تعالى : « **فبأى آلاء ربكما تكذبان** » (٤) وفى الثانية تكرر قوله تعالى : « **فكيف كان عذابى ونذر** » (٥) ، وفى الثالثة تكرر قوله تعالى : « **ويل يومئذ للمكذبين** » (٦) .

— وقد يكرر ذكر القصة فى مواضع متعددة ، وتلك سمة عامة فى القصص القرآنى كما سبق أن اشرنا ، ولم يستثن منها سوى قصة يوسف .

هذا واذا كان التأكيد اللفظى يعنى تكرار اللفظ بعينه او تقويته بموافقة فى المعنى (٧) فان لنا أن نستأنس بهذا ، ونعد من التكرير الأساليب الآتية :

---

(١) الزمر : ٢٣ .
(٢) انظر تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٩٥
(٣) النحل : ١١٠ .
(٤) الرحمن : ١٣ وتكررت فى ٢٩ آية منها .
(٥) القمر : ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٣٠ .
(٦) المرسلات : ١٥ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩
(٧) انظر حاشية الصبان على شرح الاشمونى جـ ٣ ص ٨٠ طبعة عيسى البابى الحلبى .

ـــ تكرير المعنى بالأمر به أولا ثم النهى عن ضده :

مثل قـوله تعـالى : « **واذا طلقتم النسـاء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا** » (١) فقد أمر بالامساك بمعروف ، ثم أكد المعنى بالنهى عن ضده فى قوله : « **ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا** » فقوى الأول بموافقة فى المعنى ٠

ـــ عرض المعنى فى صورتين تؤديان الى نفس النتيجة :

كالذى فى قوله تعالى : « **قل من يرزقكم مـن السماء والأرض أمـن يملك السمع والأبصار ومن يخـرج الحى من الميت ويخـرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر** » ؟ (٢) فالاستفهام هنا للتقرير بأن الله هو القادر على ذلك ومن ثم فهو المستحق للعبادة ٠ ثم يأتى بعد ذلك قوله تعالى :

« **قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده** » ؟ (٣) ٠٠ « **قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق** » ؟ (٤) ٠ فالمراد هنـا الاقرار بنفى صـفات الالوهية عن الشركاء ومن ثم تكون النتيجة هى الاقرار باستحقاق الله للعبادة وانفراده بالالوهية فهذا اقرب شىء الى التأكيد بالتكرير ، ولكنه ليس تكرير الالفاظ بل تقوية المعنى الأول بموافقه فى المعنى ٠

على أننا نلاحظ أن فى الآيات لونـا آخر من التـكرير ، وذلك أن كل استفهام من هـذه الاستفهامات كاف فى اثبـات ما يراد اثبـاته ، فتـكرار الاستفهام وتواليه لون من التأكيد بالتكرار اللفظى ٠

ـــ الالحاح على المعنى بالتعبير عنه فى صور مختلفة متتالية ، كل منها تؤكد الاخرى ، وتعتبر كالتكرير لهـا :

كالذى فى قوله تعالى : « **فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هـذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون ٠ انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين** » (٥) ٠

---

(١) البقرة : ٢٣١ ٠ (٢) يونس : ٣١ ٠

(٣) يونس : ٣٤ ٠ (٤) يونس : ٣٥ ٠

(٥) الأنعام : ٧٨ ، ٧٩ ٠

والنص الكريم يصور ما كان بين ابراهيم عليه السلام وقومه عندما اتبع فى هدايتهم أسلوب الاستدراج والمجاراة حتى يروا بأنفسهم دليل بطلان عقيدتهم فبعد أن استعرض عددا من الكواكب وأرى قومه أنها لا تستحق العبادة لأنها تأفل وتغيب والاله الحق منزه عن ذلك ـ بعد هذان أن له أن يجهر بالحق ويعلن عقيدته التى يؤمن بها وأن يعلن براءته مما يشركون وذاكرا لما يقتضيه المقام من تأكيد قوى نراه يعبر عن مراده مكررا له أربع مرات فى صور مختلفة كلها يؤدى المعنى فيعلن براءته أولا مما يشركون « **ياقوم انى برىء مما تشركون** » ثم يبين عقيدته التى ارتضاها « **انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض** » ثم يكرر المعنى بقوله « **حنيفا** » أى مائلا عن الأديان الباطلة مخلصا الدين لله ثم يكرر براءته من الشرك ونفيه « **وما أنا من المشركين** » ٠

● **التوكيد بالتعبير بالماضى بدل المستقبل :**

التعبير عن المستقبل بصيغة الماضى من صور مجىء الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، بقصد الاشارة الى تيقن حدوثه ، وتأكيد وقوعه ، ومثاله ما فى قوله تعالى : « **ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا** » وقوله : « **ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم** » وقوله : « **ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء** » (١) فنرى أن هذه المشاهد لم يأت زمانها بعد ، ولكن عبر عنها بصيغة الماضى ليدل على تحقق الوقوع ٠

ومنه قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : « **قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا** » (٢) فهو لم يؤت الكتاب بعد ، ولم يكلف بالرسالة ولكنه عبر بالماضى للتنبيه على أن هذا أمر مقضى ، وأنه واقع لا محالة ، وهذا هو معنى التأكيد ، وأمثلة هذا كثيرة لا تحتاج الى تنبيه ٠ وواضح أن ذلك من الاستعارة فى الفعل باعتبار زمنه ٠

● **التوكيد بصيغة القصر :**

ليس الغرض هنا دراسة أسلوب القصر ، ودوره فى البلاغة دراسة وافية ولكننا نلمس الموضوع من ناحية دلالة هذا الأسلوب على التوكيد الذى ندرسه كواحد من وسائل التأثير فى الأسلوب القرآنى :

---

(١) انظر الآيات : ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٠ من سورة الأعراف ٠
(٢) مريم : ٣٠ ٠

وطرق القصر سواء تلك المتفق عليها وهى العطف بـ « لا » النافية ، و « ما » و « الا » ، و « انما » والتقديم ، أو المختلف فيها ، وهى تعريف المسند والمسند اليه ، وضمير الفصل ، تفيد التأكيد فى بعض صورها بلا جدال ، وقد أكد القرآن الكريم بها معانيه فى مواضع لا تحصى كثرة ٠

وأوضح ما تكون دلالتها على التوكيد فى المواطن الآتية :

ـــ فى قصر الموصوف على الصفة ، وبخاصة عندما تكون هناك حالات تتجسم فيها صفة من صفات الشىء حتى تطغى على ماعداها ، وحتى يكون الموصوف كأنه قد خلص لها ، فلم يعد متصفا بغيرها ، كما فى التعبير الكريم : « **وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون** » (١) ٠

جاء فى تفسير أبى السعود تفسيرا لمعناها « والمعنى اما على حذف المضاف أو على جعل الحياة الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة ٠ كما فى قول الخنساء فانما هى اقبال وادبار » (٢) ٠

ومثل هذا قوله تعالى : « **انما أموالكم وأولادكم فتنة** » (٣) فليس المراد قصر الأموال والأولاد على صفة الفتنة بمعنى أنهما لا يوصفان بغيرها ٠ ولكن المراد أن هذه الصفة قد غلبت فيهما على غيرها من الصفات حتى لكأنهما غير متصفين الا بها ٠

وكذلك قوله تعالى على لسان قارون : « **انما أوتيته على علم عندى** » (٤) فهو لا يريد قصر أسباب تحصيله لما لديه من الكنوز على علمه فقط بمعنى نفى أن يكون هناك سبب غيره ٠ ولكنه يريد تأكيد أن هذه الصفة هى الأساس فى حصوله عليها ٠

ـــ وكذلك أن يراد فى قصر الصفة على الموصوف المبالغة فى كمال الصفة ، وهو ما يعبر عنه بأنه قصر ادعائى ، وذلك كقوله تعالى : « **وغدوا**

---

(١) الأنعام : ٣٢ ٠ (٢) تفسير أبى السعود ص ٩٣ جـ ٢ ٠

(٣) التغابن : ١٥ ٠ (٤) القصص : ٧٨ ٠

عـلى حرد قادرين » (١) فالمراد بالتقديم هنا قصر قدرتهم عـلى الحرد وهو المنع ، وهم قادرون على غيره كالاعطاء والتسامح ، ولكن آثر أسلوب القصر هنا ليؤكد اصرارهم على الحرد ، واستحكام الشر فى نفوسهم ، وامتلائها به لدرجة لا تجعلها قادرة الا على المنع وحرمان الفقراء ٠

● **التوكيـد بالتقديم :**

يفيد التقديم التوكيد فى حالات ويفيد القصر فى حالات أخرى ، ومما يكون التقديم فيه للتوكيد ودفع الشك :

ـــ اذا تقدم المسند اليه المعرفة على الخبر الفعلى ولم يكن فى الكلام نفى ، وفى هذه الحالة اما أن يفيد القصر أو التوكيد حسب المقـام ومراعاة حال المخاطب ، ففى مثل قوله تعالى : « **ومن أهل المدينة ، مردوا على النفاق لا تعلمهم ، نحن نعلمهم** » (٢) مفيد للقصر ، اذ المـراد لا يعلمهم الا نحن ٠ لابطانهم الكفر فى قلوبهم فلا يطلع عليه الا الله ٠

وفى مثل قوله تعالى : « **واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقـون** » (٣) يراد به التوكيد ، اذ المراد تأكيد أنهم خلق الله فليسوا أهـلا للعبادة ، لا قصر الفعل « **يخلقون** » عليهم لأنـه محال فهم بعض خلق الله ٠

ـــ اذا كان فى الكلام نفى ولكن المسند اليه تقدم على المسند وعلى النفى أيضا وفى هذه الحالة يفيد التقـديم التـأكيد فقط ، وذلك مثل قوله تعالى : « **والذين هم بربهم لا يشركون** » (٤) ٠ فانه يفيد من التأكيد فى نفى الاشراك مالا يفيده لو قلنا والذين لا يشركون بربهم أو بربهم لا يشركون ٠ ومنه قوله تعالى : « **ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون** » (٥) ٠

---

(١) القـلم : ٢٥ ٠
(٢) التوبة : ١٠١ ٠
(٣) الفرقان : ٣ ٠
(٤) المؤمنون : ٥٩ ٠
(٥) الانفال : ٥٥ ٠

● **التوكيد بأحـرف الزيادة :**

أطلقنا على هـذه الحروف التى تذكر للتأكيد أنها زائدة تمشـيا مع ما أطلقه النحويون عليها ، والا فما دامت تقوم بدور فى المعنى وهو التوكيد فالأوفق أن يقال عنها انها قد جيء بها للتأكيد · وهى كثيرة منها :

ـــ زيادة « لا » النافية فى القسم مثل قوله تعـالى : « **لا أقسم بهـذا البلد** » (١) وقوله : « **فلا أقسم بمواقع النجوم** » (٢) فقد قال العلماء انها مزيدة للتأكيد (٣) ·

ـــ ومنها « لا » فى قـوله تعـالى : « **قال ما منعك ألا تسـجد اذ أمرتك** » (٤) فهى أيضا لتأكيد معنى الفعل الذى دخلت عليه كما فى قوله : « **لئلا يعلم أهل الكتاب** » (٥) · منبهة على أن الموبخ عليه ترك السجود (٦) ·

ـــ ومنها « من » فى قوله تعالى : « **ومن رزقناه منا رزقا حسنا** » (٧) ، فقد زيدت للتأكيد وضاعف من جمالها اضافتها الى نون العظمة ·

ـــ ومنها « زيادة حرف فى كلمة كما فى قوله تعـالى : « **عينـا فيها تسمى سلسبيلا** » (٨) يقول صاحب الكشـاف : يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل » · وقد زيدت الباء فى التركيب حتى صارت الكلمة خماسية ودلت على غاية السلاسة (٩) ·

وأمثال هذه الحروف المفيدة للتأكيد كثيرة متناثرة فى البحث ·

● **التوكيد بالتعبير بالخبر والمراد الأمر :**

وهـذا أيضـا من الاسـاليب المفيدة للتوكيد ومثاله قوله تعـالى : « **فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله** » (١٠) · فقد قيل ان المراد بها الأمر اذ المعنى : فلتطع المرأة زوجها ولتحفظه ، ويكون سر العـدول عن

---

(١) البلد : ١ ·
(٢) الواقعة : ٧٥ ·
(٣) انظر تفسير أبى السعود جـ ٥ ص ١٣٤ ·
(٤) الأعراف : ١٢ ·
(٥) الحديد : ٢٩ ·
(٦) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ١٥٨ ·
(٧) النحل : ٧٥ ·
(٨) الانسان : ١٨ ·
(٩) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٩٨ ·
(١٠) النساء : ٣٤ ·

أسلوب الأمر الى الخبر هو المبالغة فى التأكيد ، فكأنه يقول : أن هذا الحفظ هو طبيعة الصالحات ومن مقتضى صلاحهن ٠

وكذلك قوله تعـالى : « **والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء** » (١) فان الجملة خبر فى معنى الأمر ، فأصل المعنى : وليتربص المطلقات « واخراج الأمر فى صورة الخبر تأكيد للخبر ، واشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة الى امتثاله فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عنه موجودا » (٢) ٠

هذا ويمكننا أن نلمح معنى التوكيد فى أساليب أخرى كالتنبيه والتشويق والتعبير بالظاهر بدل الضمير ، والتفصيل بعـد الاجمـال ، والايضاح بعـد الابهام ، والتأكيد باختيار الصيغة الدالة على المبالغة ، والتأكيـد بالوصف والنداء وغيرها ٠ ولكن نرجو أن يكون فيما قدمناه من أساليب ما يفى بما قصـدنا بيانه من أن القـرآن الكريم فى دعوته يتوسع فى استخدام أسلوب التأكيد لقيمته الكبرى فى التأثير كما سبق أن بينا ٠

★★★

● ثالثا ـ ايثار الأساليب القادرة على احتـواء المشـاعر الوجـدانية والتعبير عنها :

القرآن الكريم كتاب دعوة ، والدعوة تشق طريقها الى القلوب بالاقناع والتأثير فى النفوس ، ولكى يبلغ القرآن هـذه الغاية نراه يضرب فى النفس على أوتار متعددة ليصل الى قرارها وموضع التأثير والاقناع فيها ٠

والأساليب متفاوته فى قدرتها على احتواء المشاعر الوجدانية ، تعبيرا عنها واثارة لها ٠ فكان طبيعيا أن يؤثر القرآن منها الأقدر على هـذه المهمة ويكثر من استخدامها ، لأنها المناسبة للغرض الموافقة لمقتضى الحال ٠

ومن أهم هذه الأساليب التى لاحظناها من خلال دراستنا التطبيقية فى الباب الثانى لاحتفاء القرآن بها وكثرة ورودها فيه :

---

(١) البقرة : ٢٢٨ ٠ (٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٦٥ ٠

● **أسلوب الطلب :**

يقـرر نقاد الأدب أن الجملة الطلبية أدنى الى روح الشعر الذى يراد به التأثير من الجملة الخبرية (١) · ذلك أن أسـلوب الطلب من أمر ونهى واستفهام ورجاء وتمن ، ونداء وعرض وتحضيض تستخدم بجانب معانيها الحقيقية فى فيض من المعانى البلاغية التى يقتضيها المقـــام ، ويستدعيها التعبير عما تجيش به نفس المتكلم من مشاعر ، وما يريد أن يثيره فى المخاطب من انفعالات ·

فنجد الأمر مثـــلا يستعمل بجانب معناه الحقيقى ـ وهو : طلب الفعـل على وجه الاستعلاء فى معان أخرى كالاباحة ، والتهديد ، والتعجيز ، والاهانة والتمنى ، والدعاء ، والالتماس ، الى آخر ما ذكره البلاغيون ، وكذلك نرى أسلوب الاستفهام ومعناه طلب العلم بشىء لم يكن معلوما من قبل يخرج الى معان بلاغية أخرى منها : « الاختبار والانكار بمعنى النفى ، والانكار للتوبيخ والتقرير ، والتكثير ، والأمر ، والتمنى ، والتشويق ، والتلطف ، والتعظيم ، والتحقير · وقد يصاحب هذه المعانى معان أخرى فرعية كالتعجب والتهكم والوعيد ، والعتاب والاشفاق والايناس ، والافتخار والامتنان ، والشماتة ، والتزلف ، والعتاب ، والتحسر ، والتحريض ، والتثبيت وغير ذلك (٢) ·

وهكذا غيره من أسـاليب الطلب تستعمل فى معان وجدانية بجـانب معناها الحقيقى ، مما يجعلها أقدر على أداء ما تجيش به النفس من انفعال ·

ونظرا لخصائص أسلوب الطلب هذه نراه أكثر ما يكون استخداما فى الأغراض الوثيقة الصلة بالمشاعر النفسية ، كما فى الدعوة الى العقـائد من ايمان بالله وبرسوله واليوم الآخر ، والتنفير من عبادة الأصنام · وهى الأغراض الأساسية فى القرآن المكى ، حيث المخاطبون به من المشركين الذين تمتلىء قلوبهم بمشاعر العداء له ، ويواجهونه بالسخرية والتعجب والعناد ، فيصور القرآن مشاعرهم تلك ، ويواجهها بما يطابقها ، فينكر عليهم ، ويتعجب منهم ، ويوجه اليهم القول متهكما ومقررا وموبخا ومتوعدا ومحقرا ·

---

(١) انظر كتاب أساليب الاستفهام فى القرآن ص ٤٨٨ ·

(٢) انظر كتاب أساليب الاستفهام فى القرآن ص ٢٤٧ ·

ومن هنا نرى أساليب الطلب شائعة فيه بالمقارنة بما نزل بالمدينة ، حيث جدت أغراض أخرى من تشريع وعبادات تقل حاجتها الى مثل هذه الأساليب فتتجه بصورة أكبر الى العقل منها الى العاطفة ٠

وقد قام صاحب كتاب « أساليب الاستفهام فى القرآن » باحصاء أسلوب الاستفهام فى القرآن كله ، نستأذن فى اثباته هنا ، لدلالته القوية على ما نحن بصدده ، فالاستفهام أحد أساليب الطلب ٠ يقول : ان نسبة حجم القرآن المكى الى نسبة حجم القرآن المدنى كنسبة ٣ ـ ٢ وقد أحصيت جملة أساليب الاستفهام فى المكى فوجدتها ٩٩٦ أسلوبا ، وجملة أساليب الاستفهام فى المدنى فوجدتها ٢٦٤ أسلوبا ، فتكون نسبة الاستفهام المكى الى الاستفهام المدنى كنسبة ٩٩٦ : ٢٦٤ = ٣٧ : ١٠ تقريبا ٠ ثم يقول : ولبيان ذلك أقول : انى عددت سطور المكى فوجدتها ٤٥٦١ سطرا ووجدت سطور المدنى ٢٩٠١ سطرا أى أن فى ٤٥٦١ سطرا وهو القرآن المكى ٩٩٦ أسلوبا من الاستفهام أى بنسبة ٢٦٠ فى الألف ٠ وفى ٢٩٠١ سطرا وهو القرآن المدنى ٢٦٤ أسلوبا من الاستفهام أى بنسبة ٩١ فى الألف » (١) ٠

ودلالة هذا الاحصاء على اثبات ما قلناه لا تحتاج الى تعليق ٠

هذا وفى دراستنا التطبيقية ـ بالباب الثانى ـ تعرضنا لعشرات بل مئات من نماذج هذا الأسلوب الطلبى ، وبخاصة أسلوب الاستفهام ، ولمسنا قدرته فى اثارة المشاعر والتعبير عنها فى كل موضع وردت فيه ، ولكننا هنا نشير فقط الى أن ايثار أسلوب الطلب ظاهرة واضحة ومطردة فى الأسلوب القرآنى حيث كان المقام يستدعيها ٠

والواقع أن أسلوب الاستفهام فى القرآن الكريم لا يستعمل فى معناه الحقيقى الا اذا كان حكاية لأقوال الآخرين مثل قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : « كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى الى الله » (٢) أما فى غير ذلك فهو مستعمل فى معان مجازية تصور المشاعر ، وتثير الانفعالات النفسية ، مما جعل لهذا الأسلوب قيمة عظيمة فى مجال التأثير ٠

---

(١) ص ٤٨٧ من المرجع المذكور ٠ وقد نقلنا النص كما ورد فى الاصل حيث كتب مابه من أعداد بالأرقام لا بالحروف ٠

(٢) الصف : ١٤ ٠

ولنقرأ قوله تعالى : « **قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون • سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون • قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم • سيقولون لله ، قل أفلا تتقون • قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون • سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون** » (١) •

فنجد الآية الكريمة تتوجه اليهم باستفهامات تقريرية كى تجبرهم على الاعتراف وهم لا يملكون الا أن يعترفوا ، وعنـد ما يعترفون تعقب على كل اعتراف باستفهام آخر يحمل معنى التعجب من مسلكهم والتسفيه لآرائهم ويكشف عما فى عقيدتهم من تناقض • فبينما يقرون أن ذلك كله لله لا يعملون بما يوجبه هذا الاقرار من توحيد لله ونفى الشرك عنه • حتى يقوا أنفسـهم عذاب هذا القادر الذى أقـروا بأن لـه كل شيء وهو قادر على كل شيء • « **أفلا تذكرون** » « **أفلا تتقون** » « **فأنى تسحرون** » •

ولنقـــرأ قوله تعالى : « **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ، ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم ان كنتم صـادقين** » (٢) ولنتأمل ما يتضمنه الاسـتفهام من تعجيز وافحام يترك المجادلين وقد أسقط فى أيديهم وانقطعت حجتهم وعقدت ألسنتهم •

* * *

● **رابعا ـ وسائل التشويق والاثارة والتنبيه :**

من السمات التى يتميز بها الاسـلوب القـــرآنى ، وتمنحه قدرة على التأثير فى النفس وتهيئتها لقبول المعنى ، تضمنه لكثير من وسائل التشويق والاثارة والتنبيه التى تقوم بدورها فى تمكين المعانى فى النفوس ، باثارة تطلعها الى معرفة الخبر أو جلاء ما به من ابهام ، أو تفصيل ما به من اجمال • فاذا ورد المعنى بعد هذه الاثارة أنست اليه النفس ، وتمكن فيها بعد أن سبقه اليها رسول مهد له موطنا مكينا •

من أهم هذه الوسائل ما يأتى :

---

(١) المؤمنون : ٨٤ ـ ٨٩ •　　(٢) الاحقاف : ٤ •

● **التفصيل بعد الاجمال والبيان بعد الابهام :**

اذا ألقى الكلام الى النفس مجملا استشرفت لمعـــرفة تفاصـــيله وتظل متطلعة بكل حواسها الى ما سيلقى اليها · فاذا سيق الكلام بعد ذلك مفصلا وصل الى أعماقها ·

مثل قوله تعالى : « **وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا** » (١) هـكذا عبر عن جزائهم فى اجمال بأن مصيرهم الجنة ، ثم فصل ما فى الجنة من ألوان النعيم فيقول ذاكرا أحوالهم فيها : « **متكئين فيها على الأرائك ، لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا · ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا** » ··· الى آخر الآيات (٢) ·

ومثل قوله تعالى « **واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا** » (٣) هكذا يعبر فى اجمال ثم يفصـل بعض هـذا الملك الكبير والنعيم فيقول سبحانه : « **عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسـقاهم ربهم شرابا طهورا · ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا** » (٤) ·

ومثل قوله تعالى : « **ان سعيكم لشتى** » (٥) فقد بين أن مساعى الناس فى الدنيا متنوعة ثم فصل ذلك بقوله : « **فأما من أعطى واتقى · وصـدق بالحسنى · فسنيسره لليسرى · وأما من بخل واستغنى · وكذب بالحسنى · فسنيسره للعسرى** » (٦) ·

ومثال الابهام ثم التوضيح قوله تعالى : « **ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين** » (٧) فقد ذكر لفظ « **مثـلا** » مبهما ثم فسره بما جاء بعده ليثير تطلع النفس الى معـرفة المراد ويشوقها اليه ·

---

(١) الانسان : ١٢ ·
(٢) الانسان : ١٣ ، ١٤ ·
(٣) الانسان : ٢٠ ·
(٤) الانسان : ٢١ ، ٢٢ ·
(٥) الليـل : ٤ ·
(٦) الليل : ٥ ـ ١٠ ·
(٧) التحريم : ١٠ ·

● **أسلوب الالهاب والتهييج :**

من الأساليب التى استخدمها القرآن أيضا فى التأثير ما يسميه العلماء: أسلوب التهييج والالهاب ، وذلك بألا يكون المقصود بالأمر هو حصول المأمور به لأنه متحقق وموجود ، بل الغـــرض اثارة الهمة وتقوية العـــزيمة على استدامته والاستمرار عليه ·

ومن ذلك قوله تعالى: «**يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين، ان الله كان عليما حكيما** » (١) فحاشا لله أن يكون الرسول عليه السلام ممن لا يتقون الله حتى يؤمر بها ، أو أن يكون مطيعا للكافرين فينهى عن طاعتهـم ولكنه أسلوب الالهاب والتهييج الذى يراد به الحث عـلى زيادة التمســك والتصلب والثبات على ما هو عليه « ويكون فضل هذه الطريقة فى التعبير على قولنا : استمر فى التقوى أو ازدد منها وازدد تمسكا بعدم طاعة الكافـرين والمنافقين : هى انهـا تفيـد مع ذلك الالهـاب والتهييج ، وتثير الشـــعور والوجدان ، فتكون النفس أحسن تلقيا ، وأكثر تمسكا بما هو كائن ، ولذلك نجد هذا الفن من فنون القول مستعملا فى المعانى الهامة التى هى أصول فى هذا الدين » (٢) ·

ومثل هذا قوله تعالى مخاطبا المؤمنين : « **آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** » (٣) فالمخاطبون مؤمنون ولكنه أسلوب الالهـاب غرضه البلاغى ما قلناه فى الآية السابقة ·

ومثل هذا فى القرآن كثير ·

● **أسلوب الالتفات :**

« الالتفات عند الجمهور هو الانتقال من أسلوب الى أسلوب ، بأن يعبر بأسلوب التكلم مثلا ثم ينتقل الى أسلوب الخطاب ، وهكذا على أن يكون ذلك على خلاف ما يتوقع المخاطب » (٤) ·

---

(١) الأحزاب : ١ ·

(٢) من أسرار التعبير القرآنى ·

(٣) الحديد : ٧ ·

(٤) محاضرات فى تاريخ البلاغة العربية ص ١١١ ·

ولهذا الأسلوب مكانته فى التأثير النفسى ، اذ فيه تجديد لنشاط السامع واثارة لانتباهه لمعنى يوليه المتكلم اهتماما خاصا ، ويريد من المخاطب أن يتلقاه مصغيا اليه ، متفتح الوجدان لاستقباله ، فيلجأ لهذا الأسلوب ليحقق له ما يريد من تأكيد للمعنى وتثبيته ٠

وأمثلته كثيرة فى كتاب الله عز وجل ومنها :

قوله تعالى : « **وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** » (١) ٠

ففى قوله تعالى « **فأولئك هم المضعفون** » التفات من الخطاب الى الغيبة يقول عنه صاحب الكشاف « كأنه قال للائكته وخواص خلقه : فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون ، فهو أمدح لهم مـن أن يقول : فأنتم المضعفون » (٢) ٠

ومنه أيضا قوله تعالى : « **وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، ان ربك حكيم عليم** » (٤) ٠

فقد بدأ بأسلوب التكلم ثم انتقل منه الى أسلوب الخطاب فى قوله « **ان ربك حكيم عليم** » على طريق الالتفات ، اظهارا لمزيد اللطف والعناية بابراهيم عليه السلام ، ايناسا له جزاء ثباته وحده أمام الأمة كلها ٠

● **الخصائص الصوتية للتعبير القرآنى :**

لا شك أن للكلمات خصـــائص صوتية لها قدرة عـلى حكـاية المعنى وتصويره ، تجعل بعضها أشد توافقا مع بعض المعانى منها مع بعضها الآخر٠ وتكتسب الكلمات هذه الخصائص المميزة من طبيعة الحروف المكونة لهـا ومخارجها فى النطق بين جهر وهمس ، وشدة ولين ، الى آخر ما يدرس فى علم التجويد ، أو فى علم الأصوات الحديث ٠ والنقد الحديث يعبر عن هـذه الظاهرة بالموسيقى الداخلية وهى ذاتها ما عناه النقد القديم فى دعوته الى

---

(١) الروم : ٣٩ ٠ (٢) الكشاف ج ٣ ص ٢٢٤ ٠

(٣) الأنعام : ٨٣ ٠

التلاؤم بين اللفظ والمعنى ، وأن يكون للغزل ألفاظ غير ألفاظ الفخر والحماسة والهجاء الى آخر ما ذكروه ٠

كما أن لبعض التعبيرات لونا آخر من الخصـــائص الصوتية ، وهـو الايقاع والنغم الذى يجلبه التجانس الذى يجىء من ملاءمة الحروف لما يقـع عليها من حركة أو سكون ، ومن طبيعـة الحروف وترتيبها فى الكلمة ، أو ما يتبع هذا من التجانس بين الكلمة وأخواتها ، وبين العبارة والعبارة والمقطع والمقطع (١) ٠

هذه الخصائص الصوتية تهز المشاعر هزا عميقا ، وتحدث فى القارىء أو السامع نشوة وطربا ، وتجدد نشاطه ، وتزيد رغبته فى الاقبال عليه ، ولذلك أثره فى تثبيت المعانى والتأثر بها ٠

والقرآن الكريم يستخدم هذه الخصائص الصوتية كوسيلة من وسائل التأثير على أكمل صورة وأوفاها :

ـ فهو فى جملته لحن متوافق متآلف يسترعى من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر ، ولنستمع الى الدكتور محمد عبد الله دراز يتحدث عن ذلك :

« أول ما يلاقيك ويسترعى انتباهك من أســـلوب القرآن خاصية تأليفه الصوتى فى صـــورته وجوهره ٠ دع القارىء المجود يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله نازلا بنفسه على هوى القرآن ، لا نازلا بالقرآن على هوى نفسه ، ثم انتبذ مكانا قصيا لا تسمع فيه جرس حروفه ، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها ومداتها وغناتها ، واتصالها وسكتاتها ، ثم ألق بسمعك الى هـــذه المجموعة الصوتية وقد جردت تجريدا وأرسلت ساذجة فى الهواء فستجد نفسك منهـا بازاء لحن غريب لا تجده فى كلام آخر ٠ سنجد اتساقا وائتلافا يسترعى من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر على أنه ليس بأنغام ولا بأوزان ٠٠

ثم يقول : وهذا الجمال التوقيعى فى لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن ، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب » (٢) ٠

---

(١) انظر اتجاهات وآراء فى النقد الحديث ص ٢٨ ، ٨٥ ٠

(٢) النبأ العظيم ص ١٠١ ـ ١٠٢ ٠

ـ وقد تحدثنا من قبل عن الألفاظ المصورة بجرسها الخاص ، حتى انها لتكاد ترسم صورة للمعنى بنغمها المميز من أمثال : الصـــاعقة والصرصر وغيرهما ٠

ـ ثم هو فى بناء جمله يعمد الى اون من التوافق تكاد تكون به متوافقـة فى الوزن ، فلنقرأ قوله تعالى : « **والليل اذا يغشى ٠ والنهار اذا تجلى ٠ وما خلق الذكر والأنثى ٠ ان سعيكم لشتى** » (١) فنجد ذلك الايقاع المميز الذى يشيع فى هذه الجمل ، فيجعلها كأنها مضبوطة بتفاعيل وأوزان متحدة ٠

ـ وثمة سـمة أخـرى للتعبير القرآنى هى ذلك التشـاكل الواقع بين الحروف فى أواخر الآى الذى يطلق عليه العلماء الفواصل ، وهى تمد التعبير بميزة صوتية أخرى تزيد تأثيره ، بجانب وظيفتها المعنوية ، اذ تساعد عـلى تلاوته مرتلا مجودا ، بأنغام آسرة ، ذات ايقاع يتناسب مع الموقف واتجـاه المشاعر التى تصاحبه ولهذا نرى أن القرآن الكريم ينتقل من فاصـــلة الى أخرى تبعا للموقف ، وما يتطلبه من ايقاع يتناسب معه ٠

ولنقرأ قوله تعالى : « **يا أيها المدثر ٠ قم فانذر ٠ وربك فكبر وثيابك فطهـر ٠ والرجـز فاهجر ٠ ولا تمنن تستكثر ٠ ولربك فاصبر** » (٢) فنراه يســتخدم قافية الراء الســاكنة التى يوحى ايقاعها بالحزم والجد الذى يستوجبه سياق هذه الأوامر الى نبيه الكريم بعد انقطاع الوحى عنه ٠

فاذا انتقل الى غرض آخر تغيرت الفاصلة بأخرى ذات ايقاع مغاير « **فاذا نقر فى الناقور ٠ فذلك يومئـذ يوم عسير ٠ على الكافرين غير يسير** » (٣) فهو هنا يذكر باليوم الآخر وما فيه من أهوال ، فيختار الألفاظ المتسمة بالشدة والقافية الموحية بالرهبة العميقة ٠

ومثل هذا نجده فى قصة مريم ، فقد التزم فى القافية الياء المشددة ، « **واذكر فى الكتـاب مـريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ٠ فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا** » (٤) الى آخر القصة فاذا انتهت وانتقل الى تقرير مغزى القصة وبيان العبرة من ذكرها نقرأ قوله تعالى :

---

(١) الليل : ١ ـ ٤ ٠ (٢) المدثر : ١ ـ ٧ ٠

(٣) المدثر : ٨ ـ ١٠ ٠ (٤) مريم : ١٦ ، ١٧ ٠

« ذلك عيسى ابن مريم ، قـول الحق الذى فيه يمترون • ما كان لله أن يتخذ من ولد ،سبحانه ، اذا قضى أمرا فانما يقـول له كن فيكون • وان الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم » (١) فتتغير القافية كما ترى « وكأنما هذه الآيات الأخيرة تصدر حكما مستمدا منها ، ولهجة الحكم تقتضى أسلوبا موسيقيا غير أسلوب الاستعراض ، وتقتضى ايقاعا رصينا قويا بدل ايقـاع القصة الرضى المسترسل وكأنما لهذا السبب كان التغيير » (٢) •

وهكذا يستخدم القرآن الكريم الخصائص الصوتية كوسيلة للتأثير كما سبق أن بينا • فيختار لكل مقام ما تستوجبه البلاغة فى التعبير عنه •

★ ★ ★

● **خامسا ـ اثارة بواعث الطاعة وتزكية دواعى الخير فى النفس :**

أشرنا فيما مضى الى أن النفس الانسانية هى مستقر لأشتات من النوازع والأهواء ، وعديد من الأشواق الروحية والحاجات المادية ، وأن هذا الحشد المتعارض المركوز فى فطرتها جعل منها ميدانا لمعركة دائمة محتومة ، وأن السلوك الانسانى هو مظهر لنتائج تلك المعركة النفسية ، حيث ينفرد المنتصر فيها بالقيادة والتوجيه •

وهنا يأتى دور الدعوة القرآنية فى تزكية دواعى الخير ودعمها ، ليعلو صوتها فى التوجيه الى السلوك الطيب •

والقرآن الكريم يحقق ذلك بأسـاليب متعـددة ، كلها تتجه الى النفس الانسانية بالتربية والتهذيب لتستقيم على الجادة ، وهو ينوع فى أساليبه لتجد كل نفس فيه ما يطب داءها ويناسب علتها • ويمكننا أن نذكر منها ما يلى :

● **الترغيب والترهيب :**

من المسلم به أن المعرفة وحدها لا تكفى فى الزام الانسـان بالفضائل وكفه عن الرذائل ، بل لابد معها من وسائل أخرى للتهذيب والتربية ، تحفز

---

(١) مريم : ٣٤ ـ ٣٦ •

(٢) التصوير الفنى فى القرآن ص ٩٠ ـ ٩١ •

الارادة وتبعث الهمة على الالتزام فى السلوك بما توجبه المعرفة من عمل الخير والبعد عن الشر ٠

وهذه الوسائل تنحصر فى نوعين ، أولهما الثواب والعقاب اللذان يدفعان الانسان الى عمل ما يعود عليه بالخير ، ويمنعانه عما يسبب له الأذى، وثانيهما التربية الخلقية التى تتعهد النفس الانسانية فتنمى فيها حب الخير وكراهية الشر حتى تصل بها الى عمل الخير حبا فيه ، دون نظر الى ما يترتب عليه من جزاء مادى ، بل يدفعها اليه ما تشعر به من الرضا والراحة عندما تفعله ، وتمتنع عن الشر لما تحسه من كراهية ونفور من التلبس به دون نظر الى ما يعقبه من عقاب ومآخذ ٠

والانسان فى تفاوت أفراده فى الاستعدادات النفسية والاستجابة الى وسائل التأثير محتاج الى كلا النوعين ، والمنهج السليم هو الذى يأخذ فى اعتباره الطبيعة الانسانية وتفاوت استعداداتها ، فيواجه كلا بما يناسبه ، ويقوده بما يصلح له ٠

ومن هنا نرى أن القول « بأن التربية بالترغيب والترهيب هى أحط أنواع التربية وأبعدها عن القيم الانسانية لأنها تستغل غريزتين من غرائز الحيوان وهما غريزتا الخوف من الألم والحرص على اللذة المادية ٠ فاستخدام وسائل التخويف من العقوبات والاغراء بالمكافآت فى التربية نزول بالانسان الى مرتبة الحيوان » (١) ٠

نقول : ان هذا القول فيه مثالية تتجاهل الواقع الواضح وهو تفاوت النفوس فى الاستعداد للتأثر ، فان كلا النوعين من وسائل التربية يصلح لفريق من الناس وقد لا يصلح لغيرهم لقصور استعدادهم النفسى عن الاستجابة له والتأثر به وسيبقى الانسان هو الانسان متفاوتا فى هذا الشأن ، محتاجا لتعدد وسائل التربية مهما بلغ من الحضارة والرقى ، وسيبقى المنهج القرآنى فى جمعه بين مختلف وسائل التأثير هو القمة فى مناهج التربية واصلاح النفوس ٠ ومن هنا كان ما فى القرآن من ترغيب وترهيب هو ما تقضيه البلاغة ويطابق الحال ٠

---

(١) انظر دراسات اسلامية ص ٧١ ٠

● **تربية الشعور الدينى :**

وذلك بأن يعقد صلة دائمة بين النفس الانسانية وخالقها ، ويعمق فيها المعانى التى تجعلها متجهة الى الله فى كل لحظة ، وفى كل عمل وفى كل فكرة وشعور ٠

فهو يثير فيها دائما الشعور بقدرة الله المطلقة ، ويثير فيها الشعور برقابة الله الدائمة عليها ، ويثير فيها مشـــاعر تقوى الله وخشيته ومراقبته فى كل عمل ، وكل خطرة فكر ، ويثير فيها التطلع الدائم الى رضاء الله وحبه ، ويثير فيها الاحساس بربوبيته ورعايته وفضـــله ، ويثير فيها الاحســـاس بالبعث والجزاء ٠

كل هـذه المعانى وغيرها يوقع القرآن الكريم على أوتارها فى النفس الانسانية يمهد بها للأمر أو النهى ، أو يعقب بها على التشريعات والأحكام ، فتؤتى ثمارها ، ايقاظا للوازع الدينى الذى يجعل المؤمن دائما على ذكر من ربه مستشعرا رقابته مؤملا فى فضله ، معتمدا عليه ، مستمدا منه الهـدى والرشاد ، مجتهدا فى نيل رضاه ومحبته ٠

ولنقرأ قوله تعالى معقبا على أحكام المحرمات فى النكاح : « **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم ٠ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ٠ يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الانسان ضعيفا** » (١) ٠

فنراه يثير فى نفس المؤمن الثقة فى هـذه الأحكام لأنها من عنـد الله الحكيم العليم ، الذى يريد الخير والهدى لعباده ، فهو يشرع لهم ما فيه الخير ويخفف عنهم ، وييسر عليهم ، مراعاة لطاقتهم لعلمه بما جبلـوا عليـه من ضعف ، فتشريعه صادر عن رحمة بهم وحب الخير لهم ٠

وفى استثارة شعور مراقبة الله نقرأ قوله تعالى : « **واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ، واعلموا أن الله غفور حليم** » (٢) ٠

---

(١) النساء : ٢٦ ــ ٢٨ ٠ (٢) البقرة : ٢٣٥ ٠

وفى استثارة شـــعور التوكل على الله ، والأمل فى فضله نقرأ قوله سبحانه « **ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا** » (١) ٠

والقرآن الكريم زاخر بمثل هذه التوجيهات ، وهى سمة لا تحتـاج الى دليل ٠

● **تربية الشعور الأخلاقى :**

القرآن الكريم هنا يوقظ فى النفس الاحساس بحب الخير لذاته ، دون رغبة أو رهبة ، لما فيه من راحة للضمير ، واطمئنان للقلب ، وبغض الشر لذاته لما فيه من فحش وسوء وأذى للضمائر الطاهرة ٠

ولنقرأ قوله تعالى : « **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قـد سلف ، انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا** » (٢) فهو ينهى عن هـذا الفعـل القبيح ، لأنه فاحشة يجب أن تعافه النفس ، وتتعالى على الاقدام عليه ٠

ومثل ذلك قوله تعالى فى الزنا « **ولا تقربوا الزنا ، انه كان فاحشة وساء سبيلا** » (٣) وعندما يحثنا على غض البصر ، وطهارة الذيل ، يقول سبحانه : « **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم** » (٤) ٠ فهو يعلل أمرنا بهـذا السـلوك بأنه سـلوك فاضل ، يجب أن يلتزمه المؤمن لفضله ٠ وفى هذا ايقاظ للشعور الخلقى ، ليستقيم السلوك بدافع منه ٠

● **أسلوب الاحتكام الى النفس :**

يلجأ القرآن الى أسلوب نفسى ناجح فى ضمان الاستجابة والطاعة وهو أسلوب يمكن أن نسميه أسلوب الاحتكام الى النفس ، كما فى قوله تعالى :

« **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه ،**

---

(١) الطلاق : ٣ ٠ (٢) النساء : ٢٢ ٠

(٣) الاسراء : ٣٢ ٠ (٤) النور : ٣٠ ٠

واعلموا أن الله غنى حميد » (١) فالقرآن هنا يطالب المنفقين بالاحتكام الى أنفسهم ، والتفكير فيما يكون عليه الأمر ، اذا كان المنفق فى مكان الشخص الآخذ وهذا أسلوب من أحكم الأساليب فعن طريقه يكون احترام الانسان لشعور الآخرين ومعاملتهم بما يحب أن يعامل به ٠

ومثله قوله تعالى : « **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا** » (٢) ٠ ففى سبيل ايقاظ مشاعر الرحمة والحنان فى قلوب الأوصياء على اليتامى يذكرهم النص بأن أولادهم أنفسهم قد يقعون تحت ولاية غيرهم فليعاملوا ما تحت يدهم بما يحبون أن يعامل به أولادهم من غيرهم وليكن ذلك دافعا لهم الى تقوى الله فيهم والعدل اليهم والبر بهم ٠ ومن هنا كانت بلاغة النص فى تضمنه ما يضمن الاستجابة الى التوجيه الربانى بهذا الأسلوب الحكيم ٠

● **اللمسات الوجدانية المناسبة للموقف :**

منها التعقيب على المعانى بذكر صفات الله المناسبة للموقف ، والتى تلقى بايحائها القادر على استمالة النفوس واذكاء تطلعها الى ما بها من سمو للتاسى بها كالذى نراه فى قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم ، ان الله كان بكم رحيما** » (٣) فاختيار الرحيم من بين أسمائه سبحانه هو المناسب لمقام النهى عن هذه الجرائم ضمانا للاستجابة أى انه سبحانه مبالغ فى الرحمة بكم ولذلك نهاكم عما نهاكم عنه فان فى ذلك رحمة عظيمة لكم بالزجر عن المعاصى ، وللذين فى معرض التعرض لهم بحفظ أموالهم وأنفسهم » (٤) ٠ فلتتخلقوا بأخلاق الله وليكن التراحم هو أساس تعاملكم ٠

ومن ذلك قوله تعالى :«**قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله والله يسمع تحاوركما ، ان الله سميع بصير** » (٥) فان التعقيب على ما تضمنته الآية بذكر هاتين الصفتين يذكى فى المؤمن شعور مراقبة الله والحياة فى ظل الاحساس باطلاعه على أموره كلها وذلك أعظم دافع للسلوك القويم ٠

---

(١) البقرة : ٢٦٧ ٠
(٢) النساء : ٩ ٠
(٣) النساء : ٢٩ ٠
(٤) الكشاف ج ١ ص ٣٣٦ ٠
(٥) المجادلة : ١ ٠

ومن تلك اللمسات الموحية ما نراه فى قوله تعالى : « **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا** » (١) ففى قوله تعالى : « **من أنفسكم** » لمسة توثق عرى الرابطة بين الرجل والمرأة ، فهى من أنفسكم وشطر منكم وليست بجنس آخر تحزنون عندما ترزقون بها ٠

ومنه قوله تعالى : « **فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا** » (٢) فهذه اللمسة تصل النفس بالله وتهدىء من ثورة الغضب وتنشأ من حدة الكره ، حتى يعاود الانسان نفسه فى هدوء ، وحتى لا تكون الحياة الزوجية عرضة للخطر ، كلما طرأ على النفس شعور ، قد لا يلبث أن يزول ٠

ومن ذلك ايثار صفات خاصة فى النداء مثل قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا** » وقوله : « **يا بنى اسرائيل** » وقوله : « **يا أهل الكتاب** » وذلك لأن النداء بمثل هذه الصفات يكون أكثر استمالة للمخاطبين ، وأعظم ترغيبا فى الطاعة ٠

وأمثال هذا فى ثنايا هذا البحث كثير ٠٠

★★★

● **سادسا ـ المنطق الوجدانى :**

جادل القرآن الكريم خصوم الدعوة على تشعب اتجاهاتهم ، ما بين جامد مقلد ، ومتعصب لا ينقاد ، ومغرور بمنطقه وعقله ، وأهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد ، فكذبوا وحرفوا وأحالوا الدين وسيلة لاستدرار الرزق والاستزادة من المغانم ، والاستعلاء بالسلطة والقيادة ٠

جادل هؤلاء وغيرهم كما سبق أن أوضحنا ، ولكن القرآن فى جدله جمع بين نهايات الفضيلة فى البيان والاقناع ، وسلك طريقا لا يقدر عليه الا رب الناس العليم بأسرار الخلق وخفايا النفوس ٠

ان القرآن دعوة عامة خالدة ، فهى للناس جميعا ، وللأجيال كلها ، فجاء جدله ملبيا لحاجة الدعوة الى اقناع الناس جميعا على اختلاف

---

(١) النحل : ٧٢ ٠ (٢) النساء : ١٩ ٠

نزعاتهم وتعاقب أجيالهم ، وكان بذلك أيضا وسيلة من وسائل التأثير الحاسمة المتجددة فى القرآن الكريم ٠

وقد سبق أن أشرنا الى المعرفة التى تصل الى النفس عن طريق العقل المجرد تكون باردة واهنة مستكينة ، لا تستطيع أن تجد لنفسها مكانا فى حنايا القلوب تستقر فيه ، وتباشر منه التوجيه والقيادة فى السلوك ٠ كما أن أساليب البشر فى التعبير عن الحقائق العقلية بأساليب المنطق ، ومقولات الفلسفة غالبا ما تستعصى على الفهم لدى الغالبية العظمى من الناس ، مما يجعلها مقصورة على الخاصة الذين أوتوا نصيبا ملحوظا من الاقتدار العقلى والطاقة الفكرية ٠ وهؤلاء بدورهم لا يعجزون عن اثارة الشبهات حولها والتشكيك فيها أو نقضها بقضايا وأفكار تعارضها ، مما يدمر قيمتها ، ويجعل منها فى الواقع جهدا ضائعا لا يؤدى الى شىء ٠

ولهذا صاغ القرآن الكريم جدله فى أسلوب متميز ، لا يجرى على ما تعارف عليه الناس فى جدلهم وأساليب اقناعهم ، لقد استخدم ما يمكن أن نسميه المنطق الوجدانى ٠ مستعيرين تلك التسمية ممن سبق له اطلاقها عليه (١) ٠

وهذا الأسلوب المتميز هو القادر فعلا على الوفاء بحق الدعوة العالمية الخالدة ، بما تضمنه من خصائص تمكنه من ذلك ٠

فالقرآن الكريم فى عرضه لهذه الألوان من الأدلة لا يعبر عنها تعبيرا ذهنيا مجردا ، ولا يلجأ الى المعميات والأحاجى ، بل يعرضها فى أسلوب يمتع العقل والعاطفة ، مستخدما الاثارة الوجدانية وتحريك العاطفة ، وهز مشاعر الخوف والرجاء ، وانتزاع الأدلة من الأمور المحسة الواضحة فى أسلوب تصويرى أخاذ قادر على مخاطبة جوانب النفس المتنوعة ، ليصل بقضاياه الى أعماقها بالاضافة الى ما يتضمنه التعبير من اللمسات الموحية ، مما يجعلنا نقول فى ثقة انه أسلوب الهى ، لا طاقة لبشر على مجاراته ، فهو تنزيل من العليم الخبير ٠ ولنورد بعض الشواهد المؤكدة لما قلناه ٠

يريد القرآن الكريم أن يسوق الدليل المنطقى اليقينى على وحدانية الله ونفى الولد والشريك عنه متكئا على حقيقة لا تنكر وهى أنه لو كان هناك آلهة

---

(١) انظر التصوير الفنى فى القرآن ص ١٨٤ ٠

غير الله كما يزعمون لاستقل كل اله بما خلق ولحاول بعضهم أن يكون له الغلب والسلطان على غيره فيحدث الشقاق ويؤدى ذلك الى فساد الكون ، ولكن الواقع الذى لا ينكر بحال أن الكون كله ينتظمه قانون واحد ولم يتطرق اليه فساد ، اذن فمدبره واحد وليس هناك غير الله • ولكن القرآن يسوق هذا الدليل فى هذا التعبير المعجز فى بلاغته فيقول سبحانه :

« **قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون • سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون • قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم • سيقولون لله ، قل أفلا تتقون • قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون • سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون • بل أتيناهم بالحق وانهم لكاذبون • ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون** » (١) •

فنراه يمهد للدليل بهذه الاستفهامات التقريرية كى ينتزع اعترافهم بالمقدمات اليقينية التى لا يمكن انكارها • ثم يضمن النص لمسات توجه أنظارهم الى التناقض الواضح فيما يعتقدون ، فاذا كانوا يقرون بهذه الحقائق وأن الله مالك السموات والأرض وخالقهما ومدبرهما فكيف يشركون معه آلهة أخرى فى العبادة « **أفلا تذكرون** » ؟ « **فأنى تسحرون** » ؟ • ثم يثير فيهم مشاعرالخوف وحب السلامة بقوله « **أفلا تتقون** » ؟ ، « **وهو يجير ولا يجار عليه** » • ثم يحملهم على الاجابة بقوله « **ان كنتم تعلمون** » ويكرر ذلك كى يقروا حتى لا يتهموا بالجهالة والحمق •

ثم يختار من الألفاظ ما يوحى بالمهابة والتعظيم لجنابه سبحانه وذلك ليلقى فى نفوسهم ما يحملها على الايمان بهذا القادر القوى فنراه يكرر لفظ « الرب » ويضيفه الى العرش ويصف العرش بالعظمة ، والعرش رمز الاستعلاء ، ثم يختار لفظ « الملكوت » وهو بصيغته الدالة على المبالغة يوحى بالتمكن وقوة السلطان ثم يضيف الملكوت الى « كل شىء » للاشارة الى امتداد سلطانه تعالى الى ما ذكر وما لم يذكر ، وكل هذه الخصائص التى لوحظت فى التعبير توحى بالمهابة وتعمق الشعور بالاجلال لله وتعظيمه •

وفى جو هذا التأثير الوجدانى يسوق الدليل العقلى « **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على**

---

(١) المؤمنون : ٨٤ ـ ٩١ •

بعض » (١) وهو كما نرى مشرق ومضيء لا أثر فيه لغموض يستعصى على الفهم أو القياس يحتاج الى تفسير ٠

ثم يعقب عليه بما يؤكد المهابة فى القلوب «**سبحان الله عما يصفون**»(١) تنزه سبحانه عما يقولون ٠ وهكذا ساق القرآن الكريم الدليل العقلى فى غمار هذا الفيض من المؤثرات الوجـــدانية ، وتلك هى طريقة القرآن فى جـــدله للمنكرين ٠

هذا وقد استخدم القرآن كثيرا من أساليب الجدل ولكن عرضه لها كان دائما متسما بهذه السمة الوجدانية لتنشرح الصدور لقبولها ومنها أسلوب مطالبة الخصم بتصحيح دعواه واقامة الدليل عليها ، حتى اذا عجز لزمته الحجة ، وكان ذلك تأكيدا للدعوى التى يريد القرآن اثباتها ، كالذى نقـرؤه فى قوله تعالى :

« **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى الســـموات ، ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم ان كنتم صادقين** » (٢) ٠

كما يستخدم أسلوب مجاراة الخصم واستدراجه حتى يستنبط بنفســه الحق بالتجربة كالذى نراه فى قوله تعالى : « **واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ، انى أراك وقومك فى ضلال مبين ٠ وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ٠ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ٠ فلما رأى القمر بازغا قال هـــذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ٠ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون ٠ انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما انا من المشركين** » (٣) ٠

هذا ويستخدم القرآن فى الاقناع أسلوب ضرب المثل ، وأسلوب التقرير وغيرها ويعرضها فى أسلوبه المميز الذى يجمع بين الاقناع العقلى والتأثير الوجدانى والوضوح الكامل والسلامة من كل تعقيد أو غموض ٠ وبذلك يصل فى البلاغة الى مدى لا يتطاول اليه بشر ٠

★ ★ ★

---

(١) المؤمنون : ٩١ ٠ (٢) الأحقاف : ٤ ٠

(٣) الأنعام : ٧٤ ـ ٧٩ ٠

● **سابعا ـ توجيه النظر الى الظواهر والآثار الكونية للتعرف على الأسباب المكامنة وراءها :**

من اساليب التاثير فى القرآن الكريم اسلوب الدعوة الى الملاحظة العلمية لما فى الكون من ظواهر وآثار ، وتدبر أسرارها ، والتأمل فى ملكوت السموات والأرض وما فيهما من دلائل قاطعة على أن وراءها صانعا حكيما ، وخالقا مبدعا وقادرا عظيما ٠

ولهذا الأسلوب تاثير عقلى ووجدانى فى وقت واحد ، ولهذا افردناه بعنوان خاص ، فعن طريقه تجد العقول الباحثة عن الحق الدليل الذى لا يجحد على أن لهذا الكون الها منفردا بالملك ، متعاليا عن الشركاء ، متصفا بكل كمال ، وعن طريقه ايضا يفاض على الروح تيار متدفق من المشاعر تملؤها هيبة واكبارا وتقديسا لهذا المبدع العظيم وتلين وتصفو وترق ، وتتطهر من نوازع العناد والتطاول ، فيعنو وجهها لهذا الخالق العظيم بعد أن عرفت أنها ليست بأكثر من هباءة فى هذا الملكوت الرهيب ، وصدق الله العظيم : **« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب٠ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار »** (١) ٠

ومن سمات هذا الأسلوب أن تأثيره ذاتى متجدد ، لا يختص بعصر دون عصر ، ولا بجنس دون جنس ، ولا بمستوى ثقافى دون آخر ، فمتى وجه الانسان فكره الى هذا السبيل انثالت عليه تأثيراته العقلية والروحية ، فلا يملك لها دفعا ٠ وكلما ازداد علما ازدادت قدرته على استقبال فيض أعظم من هذه التأثيرات ٠

ولعل ما نقرؤه من كتب تتتابع لعلماء لا صلة لهم بأمور الدين ـ بل ربما كانوا فى موقع يغرى بالتمرد عليه ، فجلهم علماء فى العلوم الكونية والطبيعة ـ دليل ساطع على ما نقول ، فان هؤلاء العلماء أدركوا بعقلهم المجرد فى نظرته لظاهر الكون وتوصلوا الى كل ما تدعو اليه الأديان فى مجال العقيدة من اثبات الألوهية والتوحيد ، وصفات الكمال ٠ أما ما نسمعه عن علماء من تفسيرات لنشوء الكون بالصدفة وغيرها فانه يمثل انحرافا بالفطرة ، التى

---

(١) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ ٠

أودعها الله فى النفس سببه التعصب الأعمى لنظـريات و « أيديولوجيات » خاصة تريد الترويج لنفسها وفرض آرائها على الآخرين واجبارهم على السير فى ركابها • وقد تكفل من هم أرسخ منهم قدما فى العلم بتسفيههم ونقض آرائهم (١) •

والقرآن الكريم زاخر بمثل هذه الآيات التى تدعو الى النظر فى الكون منها قوله تعالى : « **ان فى خلق السـموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** » (٢) •

وقوله تعالى : « **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ان فى ذلك لآيات للعـالمين • ومن آياته منامكم بالليل والنهـار وابتغاؤكم من فضله ، ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون • ومن آياته يريكـم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** » (٣) •

وقوله تعالى : « **وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون • وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** » (٤) •

★ ★ ★

---

(١) من الكتب القيمة فى هذا ، كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » لمجموعة من العلمـاء المتخصصين فى العلوم الطبيعية والكونية ـ مؤسسة فرانكلين الطبعة الثالثة ، سنة ١٩٦٨ • وكتابا : « مع الله فى السماء » و « مع الله فى الأرض » للدكتور أحمد زكى • وغيرهما كثير•

(٢) البقرة : ١٦٤ • (٣) الروم : ٢٢ ـ ٢٤ •

(٤) الرعـد : ٣ ، ٤ •

● ثامنا ـ الصياغة القرآنية وأسرار التراكيب فيها :

عندما نتحدث عن الصياغة القرآنية ، وما لخصائصها من القدرة على الوفاء بحق المعانى ، وعرضها فى صورة تسترعى السمع ، وتثلج الصدر ، وتملك القلب نجد أننا أمام عالم من الأسرار واللطائف والاعتبارات ، يأخذ كل باحث منها بمقدار ما يفتح الله له من رحمته ، وما يهبه من عطاء وكلما عاود النظر فيها تجلى له من أسرارها الجديد المبهر ، والجميل الآسر فلا تنفد عجائبها ولا يغيض معينها ٠

ونستعير هنا تعبير عبد القاهر عن النمط العالى من الكلام والباب الأعظم والذى لا ترى سلطان المزية يعظم فى شىء عظمه فيه ـ ولله المثل الأعلى ـ « اعلم أنه مما هو أصل فى أن يدق ويغمض المسلك فى توخى المعانى التى عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ، ويدخل بعضها فى بعض ، ويشتد ارتباط ثان بأول ، وأن يحتاج فى الجملة الى أن تضعها فى النفس وضعا واحدا ، وأن يكون حالك فيها حال البانى يضع بيمينه ههنا فى حال ما يضع بيساره هناك ، نعم وفى حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين ، وليس لما شأنه أن يجىء على هذا الوصف حد يحصره ، وقانون يحيط به فانه يجىء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة » (١) ٠ والقرآن الكريم هو هذا النمط فى صورته المثلى ٠

وقد سبق أن أشرنا الى أن القرآن الكريم لم يبتكر جديدا فى ألفاظ اللغة ولا فى أوضاعها وتراكيبها ، ولكن الأمر أمر حسن الاختيار فى تلك الألفاظ والأوضاع أيها أحق بأن يسلك فى تأدية الغرض ٠

ذلك أن الغرض الواحد يؤدى على طرائق شتى ، يتفاوت حظها فى الحسن والقبول « ففى اللغة العام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمبين ، وفيها العبارة والاشارة والفحوى والايماء ، وفيها الخبر والانشاء وفيها الجمل الاسمية والفعلية ، وفيها النفى والاثبات ، وفيها الحقيقة والمجاز وفيها الاطناب والايجاز ، وفيها الذكر والحذف ، وفيها التعريف والتنكير ، وفيها التقديم والتأخير وهلم جرا ٠٠٠ ومن كل هذه المسالك ينفذ الناس الى أغراضهم غير ناكبين بوضع منها عن أوضاع اللغة جملة بل هم فى شعابها يتفرقون ، وعند حدودها يلتقون ٠

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٦٨ ـ ٦٩ ٠

بيد أنه ليس شيء من هذه المسالك بالذى يجمل فى كل موطن ، وليس شيء منها بالذى يقبح فى كل موطن ، اذن لهان الأمر على طالبه ، ولأصبحت البلاغة فى لسان الناس طعما واحدا · كلا ، فرب كلمة تراها فى موطن ما كالخرزة الضائعة ، ثم تراها بعينها فى موضع آخر كالدرة اللامعة فالشأن اذن فى اختيار هذه الطرق أيها أحق بأن يسلك فى غرض غرض وأيها أقرب توصيلا الى مقصد مقصد » (١) ·

والقرآن الكريم هو القمة فى حسن هذا الاختيار ، سواء فى ذلك الألفاظ المفردة ، باعتبارها اللبنات التى تصاغ منها الجملة ، ويتكون الأسلوب ، أو طريقة تركيب الألفاظ وصياغة العبارة ، « فهو يتخير أشرف المواد وأمسها رحما بالمعنى المراد ، ويضع كل مثقل ذرة فى موضعها الذى هو أحق به » (٢) · ولنفصل ذلك بعض التفصيل :

● دقة اختيار الألفاظ :

ألفاظ القرآن الكريم كلها منتقاة مختارة ، لتؤدى دورها فى المعنى على أكمل وجه ، وفى دقة تامة حسب المراد من التعبير بحيث يشعر الباحث بأن كل لفظ قد وضع حيث لا يسد غيره مسده فى موضعه ، ونستطيع أن نمثل لذلك بكل ما جاء فى القرآن من الألفاظ ، ولكن سنذكر بعض النماذج التى تبدو حكمة اختيارها دون سواها واضحة جلية :

فمن ذلك قوله تعالى : « **ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون** » (٣) فالمراد بالآية الكريمة بيان أن الدافع لعدم الانفاق فى سبيل الله هو ما فى النفس من طبيعة الشح والحرص ، ولكن القرآن الكريم يعبر عن ذلك بقوله « **ومن يوق شح نفسه** » ولفظ « **يوق** » يوحى بأن الشح بلاء يودى بصاحبه ، ومن ثم فهو فى حاجة الى من يقيه شره ويكف عنه أذاه ، وهذا الايحاء الذى تضمنه اللفظ الذى اختاره القرآن فى التعبير هو المناسب للمقام لأنه ينبه المسلم على الخطر ويدفعه الى ترويض غرائزه ، وكبح جماحها ، ووقاية نفسه من غوائلها بالاستعلاء عليها وعدم الاستجابة لها ·

---

(١) النبأ العظيم ص ٩٠ ـ ٩١ ·

(٢) النبأ العظيم ص ٩٢ ·

(٣) التغابن : ١٦ ·

ومن ذلك قوله تعالى : « **قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ٠ وجعلنى مباركا اين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا** » (١) ٠

فعيسى عليه السلام يخبر قومه بحقيقة أمره ويبرىء أمه مما يوجهه قومها اليها ٠ فيقرر أنه عبد الله آتاه الكتاب والنبوة وأمره بالصلاة والزكاة ٠ ولكن القرآن الكريم يعبر عن الأمر بالصلاة والزكاة بقوله « **وأوصانى** » وذلك اشارة الى أهمية هاتين العبادتين فلفظ أوصانى يدل على الأمر المصحوب بالتأكيد ، فكأنه قال : أمرنى أمرا مؤكدا ومن هنا كان اختيار لفظ « أوصانى » هو المناسب للمقام وهو الذى تقتضيه البلاغة ٠

ومن ذلك قوله تعالى : « **ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بايمانكم ، بعضكم من بعض ، فانكحوهن باذن أهلهن** » (٢) ٠ الآية الكريمة ترخص بالزواج من الاماء لمن لا يقدر على تبعات الزواج من الحرائر ٠ والزواج من الاماء تحيط به اعتبارات متعددة ، فمن جهة نرى أن الرق يعرض الاماء لكثير من الأمور تجعل الزواج منهن سببا فى كثير من الأضرار ٠ كتعريض الولد للرق ، فالولد تابع لأمه ـ الا اذا كان الأب هو مالك الأمة فيكون الولد حرا وتصبح هى أم ولد تعتق بموت سيدها ـ فهو يضيف الى المجتمع أعدادا جديدة يولدون وقد علقت بهم وصمة يعمل الاسلام على تخليص المجتمع منها ٠ بالاضافة الى أن الأمة بحكم وضعها ممتهنة مبتذلة ليس لها من الاعتبارات الأدبية ما يوفر لها الصون والعفة ٠ ومن جهة أخرى فان هؤلاء الاماء المؤمنات على الرغم من هذه الاعتبارات أخوات فى الانسانية والدين لا يجب أن تمتهن كرامتهن أو يجحد حقهن كبشر كرمه الله ٠

والنص الكريم يجمع بين كل هذه الاعتبارات ويصوغ المعنى فى الألفاظ قادرة على الوفاء بهذا كله ٠

فنراه فى مجال الترغيب فى زواج الحرائر يختار لهن وصف « **المحصنات** » وهو وصف يوحى بالترغيب كأنه يقول « ان الحرة أولى أن يتزوج بها لان لها من حريتها ما يحصنها ويحميها من الامتهان والاقدام على ما لا ينبغى ٠ أما اذا ألجأت الضرورة الى الزواج من الاماء فنرى القرآن

---

(١) مريم : ٣٠ ، ٣١ ٠ (٢) النساء : ٢٥ ٠

المعجز يختار من الألفاظ ما يصون الكرامة ويحافظ على المشـــاعر ويوحى بحسن المعاملة فهو يسميهن « **فتياتكم** » فلا يعبر عنهن بالاماء أو الجوارى ثم يضيفهن الى ضمير المخاطبين رعاية لشعورهن وايحاء بحسن معاملتهن · ثم يعبر عن مالكيهن بقوله « **أهلهن** » فلا يسميهم سادة أو ملاكا ، وهـكذا يختار القرآن ألفاظه الموافقة للمعانى السامية التى يحرص على تعميقها فى النفوس ·

● **دقة التراكيب وخواصها :**

يتبع نظم الجملة فى القرآن الكريم المعنى المراد أداؤه ، فهو يختـــار من أوضاع اللغة وطرائقها فى التعبير أقدرها على تصوير المعنى وابرازه ، مقدرا لكل شىء موقعه وقدره كى يأتى التعبير فى النهاية فى أكمل صيغة يمكن أن يؤدى المعنى بها · فاذا قدم أو أخر ، واذا حذف أو ذكر ، واذا عـرف أو نكر واذا طابق أو جانس الى آخر ما يمكن أن تكون عليه الصياغة من أوضاع فانه لا يفعل ذلك لمجرد الصناعة اللفظية بل لأن المعنى هو الذى جعل تركيب التعبير على هذه الصورة أو تلك ضرورة لا معدى عنه · فكل شىء عنـده بمقدار ، ولكل شىء سره البلاغى الذى يتطلبه المعنى ويقتضـيه المقام « حتى صار من العسير بل من المســتحيل أن تغير فى الجملة كلمة بكلمة ، أو أن تستغنى فيها عن لفظ ، أو أن تزيد فيها شيئا ، وصار قصارى أمرك اذا أردت معارضة جملة فى القرآن أن ترجع بعد طول التطواف اليها ، كأنما لم يغلق الله لأداء تلك المعانى غير هذه الألفاظ ، وكأنما ضاقت اللغة ، فلم تجد فيها ، وهى بحر خضم ، ما تؤدى به تلك المعانى غير ما اختاره القرآن الكريم لهذا الأداء » (١) ·

ولنستعرض ألوانا من اختيار القرآن الكريم لبناء تعبيره فى صيغة دون أخرى لنرى صدق ما قدمنا ·

يستخدم القرآن فى تعبيره كلا من الجملة الاسمية والفعلية ولكنه يتوخى فى كل موضع اختيار المناسب للمقام ، فيؤثر الفعلية اذا أضاف التعبير بها اعتبارا يحتاجه المعنى كالاشارة الى التجدد والحدوث ، كالذى نراه فى قوله تعالى :

---

(١) من بلاغة القرآن ص ١٠٥ ·

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شيء قدير • تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ، وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ، وترزق من تشاء بغير حساب » (١) فهذه الأفعال الصادرة عن مالك الملك تتجدد في كل حين وتقع في كل وقت ومن هنا كانت الجملة الفعلية وصيغة المضارع الدالة على الحال والاستقبال هي المتعينة في التعبير عنها •

كما يؤثر الجملة الاسمية اذا كان المقام يتطلبها ، كأن يريد الاشارة الى الاستمرار والثبوت ، وأن الأمر دائم لا يتغير كالذي في قوله تعالى في شأن المؤمنين : « أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » (٢) فالمشار اليه وهم المؤمنون بالغيب والمنفقون مما رزقهم الله والمؤمنون بما أنزل على الرسول وما أنزل من قبله هؤلاء هدايتهم ثابتة وفلاحهم دائم • ومن هنا جاء ما تتضمنه الجملة الاسمية من تأكيد •

وقد يؤثر القرآن الكريم تقديم ما تقتضي الصناعة اللفظية تأخيره كتقديم معمول الفعل في قوله تعالى : « قل أغير الله أتخذ وليا » (٣) « وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك : أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا ؟ وأيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ؟ وأيكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك ؟ ولا يكون شيء من ذلك اذا قيل : أأتخذ غير الله وليا • وذلك لأن الانكار حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط ولا يزيد على ذلك » (٤) •

وقد يفضل القرآن الحذف اذا كان المعنى يتطلبه ، كالذي نراه في قوله تعالى : « واستعينوا بالصبر والصلاة ، وانها لكبيرة الا على الخاشعين » (٥) فان المستعان عليه في الآية غير مذكور وسر هذا الحذف الايحاء بأن كل ما يواجه الانسان في حياته من مشقات وما يعترضه من صعوبات يستعان في التغلب عليه بالصبر والصلاة • أي لافادة العموم ، وهذا المعنى لا يستفاد لو ذكر المستعان عليه فانه حينئذ سيكون مقصورا عليه •

---

(١) آل عمران : ٢٦ ، ٢٧ •
(٢) البقرة : ٥ •
(٣) الأنعام : ١٤ •
(٤) دلائل الاعجاز ص ٩٥ •
(٥) البقرة : ٤٥ •

وقد يؤثر القرآن الكريم التنكير لأنه المناسب للمقام مثل قوله تعالى : « **واذا قيل ان وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين** » (١) ٠

فالقرآن هنا يصور ما فى نفوسهم فهم جاحدون لقيام الساعة واذا كان لديهم تردد فى انكارهم لها فهو ظن ضئيل ٠ فكان التنكير هنا لافادة التقليل الذى يقتضيه المقام ٠

وقد يفضل القرآن الكريم التعبير بالاسم الموصول لغرض بلاغى كما فى قوله تعالى : « **والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا** » (٢) والسر البلاغى فى ايثار التعبير بالاسم الموصول هو أن ينص فى صلته على مدار الحكم ، وأن استحقاق الأجر مترتب على تحقيق ما تضمنته الصلة من صفات ٠ هذا الى ما فيه من تشويق الى معرفة الخبر بل والتمهيد له ٠

وقد يؤثر التعبير بالاسم الظاهر بدل الضمير لداع بلاغى مثل قوله تعالى : « **أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ، ان ذلك على الله يسير** » (٣) فقد أعاد لفظ الجلالة بدل الضمير فى قوله « **ان ذلك على الله يسير** » وذلك لأن اسمه سبحانه يوحى بالجلال المؤذن بيسر بدء الخلق عليه وقدرته على اعادته ٠

وقد يؤثر التعريف بـ « أل » لسر بلاغى كالذى فى قوله تعالى : « **ذلك الكتاب لا ريب فيه** » (٤) ٠ لأن « أل » هنا مستخدمة لاستغراق الجنس ، فكأنه قال : ذلك هو الكتاب المستكمل لخصائص جنسه ، فهو الكتاب الكامل ٠

وقد يؤثر التعبير باسم الاشارة لغرض يراد تحقيقه مثل قوله تعالى :

«**الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**» (٥) فالمقصود بـ « **أولئك** » هم من اتصفوا بالصفات السابقة عليه والسر البلاغى

---

(١) الجاثية : ٣٢ ٠
(٢) النساء : ٥٧ ٠
(٣) العنكبوت : ١٩ ٠
(٤) البقرة : ٢ ٠
(٥) الأنعام : ٨٢ ٠

فى التعبير باسم الاشـارة هو بيـان أن هـذا الحكم مبنى على تحقق هـذه الصفات ٠

وقد يفضل التعبير بأسلوب القصر كما فى قوله تعالى : « **لا يصلاها الا الأشقى** » (١) فالمقام هنا مقام ترهيب ولهذا تضمن التعبير ألوانا من وسائل التأثير منها اختيار لفظ « **يصلاها** » لما يلقيه فى النفس من تصوير مفزع ومنها تسمية مستحقها « **الأشقى** » ثم استخدام أسلوب القصر كأن النار لم تخلق الا له ٠ وفى ذلك من التأكيد ما يناسب المقام ٠

وقد يستخدم أسلوب الفصل أو الوصل اذا اقتضى المقام أيهما ٠ ولنتأمل قوله تعالى : « **أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ٠ والى السماء كيف رفعت ٠ والى الجبال كيف نصبت ٠ والى الأرض كيف سطحت** » (٢) ٠

فقد وصل بين الجمل بالواو لأن هذه الأشياء كلها مما يحض القـرآن على النظر فيه وتدبره ليصل المتأمل لها الى الايمان بالبعث والحساب ٠

ولنتأمل أيضا قوله تعالى : « **ان الذين كفروا سواء عليهم أانذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** » (٣) ٠ فقد فصل بين الجملة الأولى وبين قوله «**لا يؤمنون**» لأن الثانية تأكيد للأولى فبينهما من الارتبـاط المعنـوى ما يغنى عن الوصل بالواو ٠

وقد يؤثر القرآن الكريم أسلوب الجناس لاستدعاء المعنى له كالذى فى قوله تعالى : « **يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ٠ يقلب الله الليل والنهار ، ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** » (٤) ٠ « فان كلمة الأبصـار الأولى مسـتقرة فى مكانها فهى جمع بصر ، ويراد به نور العين الذى يميز بين الأشـياء ، وكلمة الأبصار الثانية جمع بصر بمعنى العين ، ولكن كلمة الأبصار هنا أدل على المعنى المراد من كلمة العيون ، لما أنها تدل على ما منحته العين من وظيفة الابصار ، وهى التى بها العظة والاعتبار ، فأداء المعنى كاملا تطلب ايراد هذه الكلمة ٠ حتى اذا وردت رأينا هذا التناسق اللفظى » (٥) ٠

---

(١) الليل : ١٥ ٠ (٢) الغاشية : ١٧ ـ ٢٠ ٠

(٣) البقرة : ٦ ٠ (٤) النور : ٤٣ ، ٤٤ ٠

(٥) من بلاغة القرآن ص ١٨١ ـ ١٨٢ ٠

وعلى هذا المنوال يستخدم القرآن سائر الأساليب من تشبيه أو استعارة أو كناية أو تعريض أو تلميح أو مشاكلة أو طباق أو مقابلة ، أو مراعاة النظير أو غيرها فيؤثر منها أمسها رحما بالمعنى وأقدرها على الوفاء به وعرضه فى صورة استوفت شرائط البلاغة واكتملت لها القدرة على التأثير حتى اذا ما انتهت صياغة المعنى بدا التعبير وكأنه بناء هندسى بلغ الغاية فى الكمال والجمال ، يهزك ايقاعه وتناسقه ، وتمتعك صوره وظلاله ، وتستولى عليك ايحاءاته ومعانيه ، ويبهرك جماله وجلاله ، ويأخذ عليك نفسك كلها ، ومن هنا كان ما سمعناه وما نلمسه من تأثير القرآن فى النفوس وامتلاكه أزمة العقول والقلوب ·

وبعد · فهذه هى أهم وسائل التأثير فى أسلوب الدعوة القرآنية · وقبل أن ننتقل الى الحديث عما بقى لنا من موضوعات فى البحث نحب أن نسجل أمرين هامين ·

أولهما : أن هذه الوسائل كما رأينا هى فى الواقع حسن استخدام لألوان البلاغة وفنونها فمنها تنبع وبها تكون وعنها تنشأ ، فالبلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال والكلام البليغ هو ما صيغ فى صورة ضمنت من الاعتبارات والخصائص ما يجعلها قادرة على الوفاء بما يقتضيه المقام حتى يصل المتكلم به الى ما يريد من نفس السامع ووجدانه وعقله ·

ثانيهما : أنها فى تعددها وتفاوت أثرها قد جمعت كل الأساليب والوسائل التى توصل اليها علماء النفس والاجتماع والمتخصصون فى فن قيادة الجماهير التى أشرنا اليها فى الباب الأول وزادت عليها بما فى طبيعة الدعوة الاسلامية باعتبارها دعوة الهية صادرة عن الحق تبارك وتعالى الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فكان لزاما أن تكون معجزة بين الدعوات ، مبرأة من كل ما تستبيحه دعوات البشر فى سبيل الوصول الى غايتها من تضليل ونفاق واكراه مادى وأدبى ومن وسائل تنافى الخلق الكريم والقيم السامية ولم يكن عجيبا وتلك حال الدعوة القرآنية أن يهرع الناس اليها ، وأن تبنى فى ظلها أكبر امبراطورية عرفها التاريخ فى زمن يسير مازال المؤرخون عاجزين عن تفسير سره ، ولكنهم لو أبصروا وأخلصوا لعلموا أنه القرآن الكريم الذى يحيى القلوب ويفجر الطاقات وينير البصائر ويغير النفوس ·

★★★